المقتطف

الجزء الاول من المجلد السادس بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٥ — ١٧ محرم سنة ١٣٦٤

عقّار جديد

لعلاج السل والجذام

في دار قديمة ألوت بها الرياح على ضفة نهر دترويت ، كان رجلان يتحدثان ، وكان أحدهما الدكتور لبون سويت مدير البحث الكيميائي في شركة بارك دايفس الشهيرة في صناعة العقاقير ، وكان الآخر الدكتور لويس بامباس المتوفّر على تركيب الفيتامين بعينها مع بعض لإنشاء تركيبات كيميائية جديدة .

وطرّق الرجلان في حديثهما موضوعات كثيرة ، ولكنهما لم يعرجا على الجذام والسل ، اللذين ما فتئا منذ قديم الزمان في الطليعة بين نكبات البشر ، وقد عجز العلم عن أن يحرز غلبةً تذكر عليهما أو على أحدهما . وقد باءت بالإخفاق جميع بحوث العلماء لكشف لقاح واقٍ أو علاج شافٍ للسلّ . وعجز الباحثون عن نقل الجذام الى حيوانات التجارب ، فحرموا من العثور على علاج له . وجلّ ما استطاعه العلماء ، غير أن يصفوا الراحة والتغذية الجيدة للمصاب بإحدى العلّتين .

ومع ذلك فالسلّ يقتل سنين ألفاً كلّ سنة في الولايات المتحدة ، ويعرض ثلاثمئة ألف ، والجذام يفتك من ثلاثة ملايين إلى خمسة ملايين في جميع أقطار الأرض . وقد كان سويت وبامباس يعرفان هذه الحقائق ، وما كان يقابلها من فتك سائر الأمراض بالناس ، ولكن همهما يوم اجتمعا وتحدثا لم يكن منصرفاً الى السلّ ولا إلى الجذام .

قال سويت : إن ثمة باحثين كثيرين يبحثون عن عقاقير شبيهة في أسرة السلفونامید ،

لعلاج طائفة من الأمراض لم تدن لعقار ، ولكن من المستغرب أن يهمل الجميع طائفة المركبات المعروفة باسم : سلفون .

واقترح سويت على بامباس أن يعنى بهذه المركبات عسى أن يجد فيها عقاراً ناجعاً في كفاح الجراثيم الستربتوكوكية ، التي تسبب تسمم الدم والتهاب الجروح وتعفنها ، وعسى أن يكون هذا العقار أفعل من عقاقير السلفا وأقل منها فعلاً سامّاً .

فقال بامباس : إن هذا بحث على غير هدى ، وقد يستغرق وقتاً طويلاً ويستنفد نشاطاً عظيماً ثم لا ينتهي إلى شيء له قيمة ما . فليس هناك ما يدل على أن طائفة « السلفون » فائدة في الشفاء ومع ذلك فلنجرّب .

وهذا القول يمثل نوعاً من العلم يشبع من الحاسة ويتسق مع الواقع ، وغرضه تحسين لا يعدو حبة أو سائلاً يحقن به تحت الجلد ، فتشفى من مرض يستعصي على الأطباء ، ولكنه ذلك اللون من العلم الذي أسفر أولاً عن كشف عقاقير السلفا .

وعاد بامباس إلى معمله وبدأ يبحث . وكان البحث يسير سيراً منظماً ، ويجري فيه الباحث على نمط معيّن لا يكاد يكون عنه محيد . فعلى الباحث أن ينفق الأسابيع الأولى في إبداع مركّب كيميائي جديد ، ثم يحقن به أرنباً أو فأراً . فإذا وقع الأرنب أو الفأر ميتاً ، فقد وجب نبذ المركب لأنه سمّ زعاف ، فيضيع معه جهاد أسابيع . ولكن إذا بقي الفأر على قيد الحياة ، فعندئذٍ يضع الباحث قليلاً من هذا المركب في أنبوب اختبار حافل بالجراثيم ثم يراقب ما يحدث في الأنبوب . فإذا قتل المركب الجراثيم في الأنبوب اغتبط الباحث بما تمّ ، وإذا أبطأ المركب عمل الجراثيم بالفتك بأجهزة الهضم فيها أو بأجهزة التكاثر ، إغتبط الباحث كذلك .

وبعد أن يتبيّن الباحث هذه الحقائق يخطو الخطوة التالية ، بأن يحقن بالجراثيم فأراً أو أرنباً هنديًّا ، ثم يحقنه بعد ذلك بجرعة من هذا المركب لكي يرى هل ينقذه المركب من فتك الجراثيم .

فالبحث يجري على هذا المنوال ، يركّب في أثر مركب ، على نمط خليق بأن يبث السآمة في نفسي الباحث — إلاّ إذا كان موفقاً .

وانقضى على بامباس أشهر وهو يتبع هذا الطريق الممل في البحث ، ثم أشرق له وجه التوفيق في أحد الأيام . وكان قد سبق له تركيب من ذرّات النتروجين والايدروجين

والبكربون والأوكسجين والكبريت والصوديوم مركباً غريباً كان مسحوقاً أصفر أطلقت عليه شركة بارك دايفس اسم بروميز Proviin

***

لننتقل الآن إلى معهد مايو في مدينة روتشستر بولاية مينسوتا ، فنجد هناك باحثاً يدعى الدكتور وليم فلدمان ، وكان معنياً ببحث العقاقير الجديدة التابعة لأسرة عقاقير السلفا . وقد كتب فلدمان إلى الدكتور سويت يسأله أوجد أحد الباحثين في شركته عقاراً جديداً ما من عقاقير السلفا . فيرسل إليه سويت ، بالبريد ، حفنة من مسحوق باهت الأصفر .

ويتبع ذلك بحث طويل مملّ . فيجرّب المسحوق بالجراثيم الستربتوكوكية ، فيؤثر فيها بعض التأثير وحسب . ثم يجرب في الجراثيم الستوكوكية التي تحدث التهاب الرئتين ، والجونوكوكية التي تحدث السيلان . فيؤثر فيها ولكن تأثيره ليس باهراً . ثم يخطر لفلدمان أن يجرّبه بأعظم الدون (السل وما أشبه) .

وعليك أن تذكر أيها القارئ الكريم ، أن عقاراً ما لم يؤثر قبلاً في هذه الجراثيم البطيئة العملية المراس ، التي تسبب السلّ .

فمنذ سنوات كانت جماعة من الباحثين قد جرّبت السلفانيلاميد فوجدت أن هذا العقار لا يؤثر تأثيراً ما في باعلس الدون إلاّ حين تبلغ الجرعات مبلغاً كبيراً ، فلك بينين في الثة من حيوانات التجارب ، فلم تتبين الجماعة أملاً ما في مكافحة السل بالسلفانيلاميد . فليس ثمة مسئول واحد يرغب في أن يتعاطى دواءً يبلغ احتمال فتكه به هو ، سنين في الثقة .

ولكن فلدمان قال في ذات نفسه : إنّ هذا العقار الجديد ، ليس من أسرة السلفا ، إنه من أسرة السلفون . فثمة أمل . وعلى كلّ حال إنه جدير بأن يجرّب . فبعث إلى زريبة حيوانات التجارب يطلب ثمانين أرنباً هندياً .

والأرنب الهندي خير حيوان لإجراء تجارب السلّ . فليس في جسمه مناعة طبيعية ضدّ المرض . وما عليك إلاّ أن تحقنه تحت الجلد ببعض من باعلس الدون ، فلا تنقضي أسابيع حتى تستقرّ الجراثيم في أجسام الأرانب وتستأصل في الطحال والكبد والرئتين . وفي فترة تتفاوت من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر تموت جميعاً .

وكذلك حقنت الأرانب الهندية الثمانون بجرع فتاكة من هذه الجراثيم ، ووضع الباحث اثني عشر أرنباً منها جانباً ، تنتظر ما لا مفرّ منه . وأما الثمانية والستون الباقية ، فستعطى

البروميين ، في طعامها . وليس للباحث بعد أن تعطى البروميين من عمل إلا أن ينتظر وهو يراقبها .

فلم تكد تنقضي أسابيع حتى كانت الأرانب التي حقنت بالجراثيم ولم تحقن بالعقار في طريق الموت . وأما الأرانب الأخرى فكانت سليمة لا تزال . وما انقضى اليوم الثاني والعشرون بعد المئة ، حتى كانت الأرانب الأولى قد ماتت جميعاً . بتأثير باشلس الدرن . وأما أرانب الطائفة الثانية فكانت ٨٤ في المئة منها لا تزال سليمة . ونصف الأحياء من هذه الأرانب لم تبدُ عليه أعراض سل مستفحلة . والنصف الآخر بدت عليه أعراض هيّنة ، وكان وزن جسمها قد زاد بدلاً من أن ينقص .

على أن هذا وزميليه في البحث ، سلكا طريق الشك الذي في نتائجها الأولى فأعادا التجربة ، وظفرا بالنتائج نفسها . واهتمت جماعات أخرى من الباحثين بضبط النتائج فثبتت صحتها ثبوتاً لا يرقى إليه الشك . فهذا السحوق الأصفر الشاحب ، يخبر من الجراثيم جرثومة الدرن ويؤثر فيها .

وحين كانت التجارب بالأرانب الهندية قائمة على قدم وساق انصرف باسباس وأعوانه إلى تركيب مركبات سلفونية جديدة ، بدا عليها أنها أهدى إلى الغرض المطلوب من البروميين وكان الطريق قد تمهّد لتجربة هذه الجراثيم الجديدة في الناس .

صارت التجارب في الناس ، على الطريق التي ، وهو أن تختار المصابين الذين لا رجاء لهم في شفاء ، فإذا ظهر أن العقار سم قاتل ، فانما يودي بمصابين لا يرجون . وكان المصاب الذي عرض على الأطباء ، مقبلاً في الثانية من عمره ، وكان مصاباً بالتهاب سحائي درني .

وهذا مرض مخيف ، يحدثه باشلس الدرن ، حين يهجم على أغشية المخ والحبل الشوكي فيتألم المصاب ألماً فظيعاً . ويصيح من شدة الألم حتى يحيره الأطباء . ثم تستولي عليه الغيبوبة وتليها الوفاة . والمرض قاتل لا ينجو منه أحد .

فبدأ الأطباء يحقنون الطفل بجرعات كبيرة من البرومبزول — أحد أبناء عمومة البروميين . فلم تكد تنقضي ساعات ، حتى خفت أعراض المرض تتحسن . وفي اليوم السادس كان الطفل منتبهاً في سريره يلعب ، وبعد أسابيع غادر المستشفى .

وحين يبرأ مصابون ، مثل هذا البرء العجيب ، يقرر الأطباء الباحثون ، أن ثمة خطأ ما ، فربما كان التشخيص خاطئاً والولد لم يكن مصاباً بالتهاب سحائي درني . إذ يشق عليهم أن يصدقوا لسورهم ، أن مرضاً فتاكاً استعصى على الأطباء والباحثين منذ قرون ، قد دان لهم

مثل هذه السهولة وهذا الحسم فلقد ارتابوا في سعة ما شاهدوه في حادثة هذا الطفل .

ولقد عمد فلمان وعشرات غيره يشتغلون في مصحات كثيرة في طول البلاد وعرضها إلى استعمال البروسين ليكون استعماله تجربة سريرية واسعة النطاق . فأخذ ثلاث من المرضى في أحوال ومراحل متفاوتة من المرض، وقد أخذ بعضهم من طريق أفواههم وحقن بعضهم حقناً .

كان بعض المصابين ، حديث الاصابة ، وكان بعضهم قديمها ، وكان منهم المصاب بالدرن في الكليتين ، أو المعاب بعوامل درنية . فكانت استجابة بعض المصابين للعلاج الجديد ، موضع بعض الحيرات .

بيد أن البحث العلمي يقتضي ، أن يعرف معدل تأثير العقار في مئات كثيرة من المصابين الذين أجريت فيهم التجارب ، لا أن يقتصر على مريض واحد وحسب . فاليك خلاصة الاحصاءات الخاصة بطائفة مؤلفة من ٤٢٣ مريضاً .

من هذه الطائفة ، تحسنت حالة الثلث تحسناً لا ريب فيه ، وكان التحسن في بعضها سريعاً أتيح للمصابين أن يعودوا إلى عملهم . وقد عاد تسعة وأربعون مصاباً ، منهم النصف تقريباً بالالتهاب السحائي الدرني . أما في بقية المصابين فقد كان التحسن مشكوكاً فيه ، أو قليل الحيز على حالهم . وقد أثبتت هذه التجارب أن العقار الجديد شديد التأثير في المراحل الأولى من المرض .

وإذ كانت هذه التجارب لم تثبت حتى الآن ، أن العقار الجديد علاج ناجع حاسم للسل ، فانها أثبتت على الأقل ، أنه أفعل وأنجع من أي عقار سابق .

***

هذا النجاح في علاج السل — وإن لم يكن تاماً حتى الآن — حمل الباحثين على تجربة العقار الجديد ، في إصابات الجذام . فبين الداءين وجوه شبه كثيرة . إن سببهما كليهما جراثيم عصوية ، ومن لم يكن مدرباً على التفريق بين خصائل الجراثيم ربما تعذر عليه أن يفرق بين جراثيم الدرن وجراثيم الجذام ، والمرضان كلاهما يبطلان الشباب قتلاً بطيئاً ولا يتحولان على بعضهم خاطفة كما تفعل الجراثيم الميكروبية . فبين الجذوم مجذوماً عشرين سنة أو ثلاثين . وقد يزل الجذامُ بالمصاب الهين ، ريثما جسمه بالقروح ثم يلتهب به الطاف إلى أن يجيء بشيء آخر — كالالتهاب الرئوي .

وإذا كان السل مرضاً يحيط به الغموض ويحير الأطباء والباحثين ، فالجذام أشد غموضاً وتحيراً . وقد وصف منذ ستة آلاف سنة ، ومع ذلك فقليل ما يعرفه العلماء عنه . وقد كشف

جرهارد هانسن الباحث النرويجي جرثومة الجذام سنة ١٨٧٤ ولكن جميع مساعي العلماء لاستحداث الجذام في حيوانات التجارب قد باءت بالخيبة .

وقد عمد فريق من الباحثين إلى محاولة استحداث الجذام في أبدانهم فحقنوهم بجراثيم الجذام . ولم تسفر جميع تجارب استحداث الجذام إلاّ عن حادثة واحدة أصيب فيها رجلٌ في جزائر هواي . وقد كان الرجل محكوماً عليه بالاعدام فتطوّع للتجربة ، وحقن في بدنه بجراثيم الجذام في سنة ١٨٨٤ فمات مجذوماً سنة ١٨٩٠ . ومع ذلك كان الشك يحوم حول صحة إصابته فقد قضى حياته كلّها يجاور المجذومين ويخالطهم ، ومن المحتمل أن المرض كان كامناً فيه قبل أن حاول الباحثون أن يستحدثوه في جسمه .

والتاريخ يحدثنا أن الجذام أكلح أوربة في القرون الوسطى فكان في القارة الأوربية عشرون ألفاً من ملاجئ المجذومين . ثم زال المرض من أوربة ، ولكنه آخذ في الازدياد في البرازيل .

والمرض لا ينتقل بسهولة ، على خلاف ما يُظن . فمساءة الأطباء به بالعدوى في مستشفيات الجذام نادرة ، وتدلّ الاحصاءات أن اثنتين من كل مائة من زوجات المجذومين أصيبتا بالجذام . ويكاد يوجد في كل مدينة كبيرة عدد من المجذومين يزاولون أعمالهم .

كان اعتماد الأطباء في علاج المجذومين ، على الراحة والطعام المغذّي ووقاية المصاب من الأذى . وإذا استثنى زيت الشولموجرا — وهو زيت يستخرج من جوز شجرة هندية — فان الأطباء لا يملكون عقاراً ما لعلاج المرض ، ومع ذلك فالكثيرون يشكون في فائدة هذا الزيت .

فلم يكن أمراً غريباً أن يسترعي عناية المعنيين بمسائل الجذام ، ما عرف عن فعل البرومين في المصابين بالسل ، وكان في طليعة الذين عنوا بهذا العقار ، جماعة الباحثين في مستشفى الجذام بمدينة كارفيل في ولاية لويزيانا الأميركية . فقرّر الدكتور « فاجت » أن يجرّب البرومين في طائفة من المرضى ، اعتماداً على ما بين السل والجذام من وجوه شبه .

فاختار عشرة مجذومين لهذه التجربة ، وأعطاهم جميعاً هذا العقار كرهاً . فمرض معظمهم وأصيبوا بالغثيان والصداع ، وتفاقمت فيهم حالة فقر الدم . فمرر فاجت أن يعطيهم العقار حقناً في الوريد ، واختار لذلك اثنين وعشرين مصاباً .

ثم وضع خطة : يعطى المرضى جرعات تختلف من جرام واحد الى خمسة جرامات كل يوم خلال أشهر . ثم تلي ذلك فترة أسبوعين ، يعطى فيها المصابون من الحقن بالعقار ثم

يستأنف العلاج . ويبلغ عدد فترات الراحة ثلاثاً في السنة . ولكي يدفع فقر الدم أعطى فاجت كلّ مصاب منهم طعاماً يحتوي على الكبد والحديد .

فأسفرت هذه التجربة عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن نتائج التجربة السابقة . وقد ندر بين المصابين الذين أجريت عليهم هذه التجربة ، من أصيب بردّة فعل يذكر — لم إذ تلثم أصيب بالغثيان ولكنه كان خفيفاً وعابراً . على أن المصابين الذين حقنوا بهذا العقار ، لم يستجيبوا استجابة سريعة تستوقف النظر ، ولكنّ البقع النحاسية على جلدهم — وهي علامة المجذام — بدأت تتحسن رويداً رويداً وأخذ الجلد يستردّ حالته السوية ، وشفيت القروح الغائرة ، وتحسنت الالتهابات المجذامية في العين ، بعد أن كانت تهددها بالعمى ، وقل تورّم الالتصاقات التي في السنامك الأنفية والحلق ، وهي التي تحدث الاختناق ، واندملت القرح التي في الحنك واللفتين وسقف الحلق .

وتتلخص التجربة التي أجريت على اثنين وعشرين مجذوماً في أن خمسة عشر سهم تحسنت حالهم تحسناً لا ريب فيه . وظل ستة على حالهم . وساءت حالة واحد منهم . ويرى الدكتور فاجت أن هذه التجربة أحفل بالأمل من جميع التجارب التي أجريت على الاطلاق .

***

ويجمل القول الآن أن عقار البرومين والعقاقير التي على شاكلته ليست علاجاً نهائياً لمشكلتي السلّ والجذام . فهذه العقاقير يلازمها فعل سام خفيف وليست نوعية تماماً ، وكل علاج بها يحتاج إلى جرعات كبيرة منها للظفر بنتائج طيبة . وقد بلغ ما حقنت به أوردة بعض المصابين الذين عالجهم الدكتور فاجت ، خمسة أرطال

فلا يجوز أن يذهب أحد ممن يقرأ هذا المقال إلى أن هذه العقاقير هي العلاج الناجع المطلوب فهي لا تباع الآن في الصيدليات ، وربما ان تباع في حالتها الحاضرة على الأقل .

ولكنّ العلماء الذين وفقوا إلى هذه العقاقير أشبه ما يكون بجماعة من الباحثين عن الذهب . فقد رفعوا البرابرة عن عرق من الذهب ، ولا يزال عليهم أن يستخرجوا الذهب المدفون في جوف الأرض . ولعلّ الدكتور الساحر الذي يقضي على السلّ والجذام بعقار جديد منعطف الطريق .

(نقل بتصرف يسير عن مجلة « خلاصة الطب »)

على المشنقة ...

قصة

لمحمود تيمور

« تحية لصديقي البوزباشي سيد المتعم
أبي السعود ضابط سجن سوهاج »

كان جالساً القرفصاء في حجرته الفردية من السجن ، معتمداً ذقنه بيديه ، رانياً إلى الحائط العتم أمامه . ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر ، فحجرته ليست كلها إلا حوائط متشابهة ...

وذلك الظلام الخيم على كل شيء كان يراه ناشئاً حوله ، ويحسه ينبعث من دخيلة نفسه . إنه الظلام الدائم المايس ، ذلك الزميل الوحيد الذي يلازمه ولا يريد له فراقاً .

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصى لها عدداً ، ولم يكن يستطيع أن يميز بين ليلها ونهارها ، فقد كانت الحجرة منغلقة في مبنى السجن ، كأنها عازبة تريد أن تلوذ بمكان سحيق تختفي فيه عن الأنظار !

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس ، وإن كان يذكر أن بصيصاً يدلف إليه حيناً بعد حين ، فلا يعرف : أبقية هي من أشعة الشمس استطاعت أن تفلت من بين الجدران والسدود ، أم فضلة هي من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمت الثقيل ... كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك الأوى الضيق الذي يحتويه ... صمت متواصل يقطعه رنين أجراس السجن في فترات متباعدة ، فيتراءى هذا الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً مزّق بُعد الشقة أشلاءه ، فلا يبلغه إلا أصداء غامضة لا يدرك لها كنهاً ، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس نفسه الموحشة .

وقد اتخذت هاته الحجرة في ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة

حوله شكل بئر بعيدة الهوى ، كأنما انطبق فيها فلا سفذ لها ، وهو ملقى في قرارتها كأنه إحدى الهوام التي تأوي إلى جحورها في بطون المقابر والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ، فراح يتلمس الهواء جاهداً ...

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شنقاً... وسينفذ الحكم يوماً ما إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه . . . إنه ليذكر تلك اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصلب المكتنز ، ووجهه المستدير الطوم ذي العينين المتألقتين . . .

كان في قفص الاتهام والحراس حواليه ، وعيون الناس في قاعة المحكمة تتنهبه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواثق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قوياً ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنه كائن موجود لم يمس بسوء ، ويرى الناس حياله أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من خيالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه وحية تزخر بالنور والهواء والضجة . . . لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حيًّا يتحرك ويتنفس ويستطيع أن يتكلم وأن يبتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد ... لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منه ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه . . . وتهيأ وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلىء قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحس رعشة تتمشى في أوصاله فتوهن ساقيه ، وهمَّ بأن يبتسم فأحس بعضلات وجهه تتقلص كمن أجهش بالبكاء ، أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتدّ إلى حلقه متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجهوري الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بنفسه تجمجم بنغمة مختنقة قائلاً :

ما قتلت إلاَّ منتقماً لشرفي ! ... ربنا عادل . . الأمر لله ...

وعجب لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ عبد المتجلّ عزيز قومه

وهميد بلدته في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب من علم الشريعة قدراً ومن السلطان والتحكم نصيباً ، من استطاع أن يوفق في نظره بين روح التدين وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له ، الرجل الذي أقام نفسه بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه حاكماً مهيب الرأي محشيّ الجانب ، يفصل في المنازعات وينزل العقوبات بأصحابها دون أن يردّ له أمر أو نهي ...

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقررون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والقاضي والمحامي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيم في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جانٍ فهو جانٍ ما من ذلك بدّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطىء ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفي أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع ، بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لمّا أمرٌ إليه أحد أعوانه « سعداوي » أن « سليمة » حقٌّ عليها العقاب ، إذ فرطت في شرفها وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « سليمة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كثيراً من الحب والاعزاز . . . وبعد أن استيقن من « سعداوي » أن الأمر جدّ لا يحتمل التأويل أحس على الفور حميّة الشرف تهب أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسم أن يثأر للشرف الملوم ، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عتم أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه القاسي على شقيقته وعلى شريكها في الإثم ، ولم يبح بما تمّ في محكمة نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، ترصد لغريمه المتهم بهتك عرض أخته وراءه أكمة في منطقة غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيباً إلى البلدة قبيل الغروب حتى رماه برصاق ناري وهو يغمغم : هذا جزاء الفاسق الأثيم !

وفي منتصف الليل دلف إلى مخدع أخته « سليمة » وهي مغرقة في سبات ، فلم يزعجها بإيقاظ ، بل أخذ برأسها توًّا وأعمل السكين المسنونة في رقبتها فخارت في أوداجها حتى كاد يهوي بالرأس عن الجسد ، وهو يهمهم : الله أكبر ! . . . فلتموتي أيتها الفاسقة

الأليمة ! ... وترك الجثة تحتج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم يتصبب منها دفاقاً.
ومضى يصبح السكين في قبالته ، ثم ذهب فاغتسل وأوى إلى فراشه ونام ملء جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تجمهر الأهلين ، هرج ومرج ، شرطة ورجال تحقيق ... ثم أُلقي نفسه نزيل السجن ... وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو يتنقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يقسم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحجاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهناك يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ويقعقعون بأسلحتهم الرهوبة ... تشابكت في رأسه المشاهد ، واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشى ذلك كله ضباب متراكم ، ولكن صورة واحدة بين ألفاف هذه الصور القاتمة ظلت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوي » الذي سعى إليه بتهمة أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه المثير الذي لم يكن في الحسبان ... إن اعتراف هذا « السعداوي » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صخابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهامه المقبلين في شرفهما لم يكن إلا تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنه إنما عمد إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيل لضغائن كينة ، ومن « ستية » لأنها حرمته ما كانت تجزله له من عطاء ... إذن لقد وضح للشيخ عبد المتجلي أن جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها ، لقد قتل نفسين بريئتين مناقاً بدافع وهم وخدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفياً أميناً بلا جريرة كأنه يلهو ويعبث ...

وغض من بصره ، وجعل يقرض أظفاره بعنف ، حتى أدمى أنامله ، وصعّد زفرات حرّى ... وسرعان ما لاحقه الريب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حق . إن فراسته لم تخطىء مرة وبصيرته لم تكذبه يوماً ... ولكن ماذا يصنع أمام اعتراف ذلك « السعداوي » بأنه واش كذوب ؟! ... وماذا يصنع بما أقنعه به محاميه من أنه قتل بلا موجب ، وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهماً وحلكة .

ورفع رأسه ، فاصطدم بصره بهذه الجدران الكالحة البغيضة ، جدران

البشر المظلمة التي لا منفذ لها ... وفتح عينيه جهد إمكانه ، وراح يحملق تائه النظر .. وتمثلت له اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنه يراه الآن أمامه جلي الصورة ، واضح القسمات ، منكبًّا على أوراقه ، فإذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يركز بصره دائمًا في موضع ثابت لا يعدوه إلى منصة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كله شيء ... وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صلعته ملتمعة وتختفي سريعًا ... وقد نطق بحكمه في صوت أخنّ ولهجة فاترة ، كأنه يتحدث إلى جاره حديثًا تافهًا لا يثير الانتباه .

وبينما كان الشيخ عبد المتجلي مسرح الفكر في هذه الأخيلة ، إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يشنق ولن يمسه أحد بضر ... لقد قتل من قتل ثأرًا للشرف ... إن أخته وصمت اسمه بل اسم الأسرة بالعار ، فحقّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السمداوي » والتحقيق آخذ مجراه ، وانكبّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردّد بصوت متحشرج : لقد خدمتك يا عبد المتجلي . لقد أثرت حفيظتك على بريئين . أختك طاهرة طهر الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك سترًا ولا أن يلحق بك عارًا . عفوك عفوك .

وكان يعني إلى استغفار هذا « السمداوي » ولا يلفظ من قول . إنه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يُجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً كالمشلول لم يحرك ساكنًا ؟ إنهُ يذكر أن كل ما فعلهُ ساعتئذٍ أنه ازورّ ببصره عن « السمداوي » وهمهم : إن الله لا يظلم من عباده أحدًا ...

ثم طفرت من عينه دمعة فلم يمسحها ، بل تركها تتهاوى على خده .

إنهُ ليذكر كيف خلا به عاميه بعد ذلك وجعل يتحدث إليه حديثًا مبهمًا مستغيض الحواشي ، لم ترسخ منه في ذهنه إلاّ هذه الجملة التي ختم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر يا شيخ

صمد المتجلي . الحاكم هو الله ! » . . . وانصرف عنه الحماقي ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلت هذه الجثة تزن أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه . . . لقد أحسَّ بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه وتسري في أوصاله تخزه وخز الإبر .

وألقى لسانه يردّد وهو حطام الرأس : ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ! واعترته نوبة بكاء حادّ ، وعاودتني لشيعه وهو يشعر أن ليس لهذا البكاء من آخر ثم أدرك أنه لا يجمل به أن يبكي ، فدير على مقربة منه أحد الحراس فيسمعه ، فليكفكف دمعه ، وليكبح ثائرة نفسه . . .

ورفع بصره وهجم : إنما الحاكم هو الله ! أيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه ؟ وإذا فرض أنه كان ضالاً في أقضيته لم يحد عن سنة الحق مرة ، فمن الذي نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم من أهل بلدته على فرض أنهم قد اقترفوا حقاً جرائمهم التي اتهموا بها وتصدّى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشهم وحدود تفكيرهم ما يزجّ بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا لها ردًّا ؟ أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنه تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من القوة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يندم على فعلته إلا ليطعم بثمنه الجياع ؟ ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ، وها هو ذا قد قتل متوهماً أنه يؤدي واجباً لا يقبل له بالتغاضي عنه ، فهو في حساب نفسه بريء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب . . . إن أي رجل لو كان في مكانه ، وحاقت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحمية ، لما تردّد في أن يفعل ما فعل ويقتل من قتل : المأمور الذي قبض عليه ، ووكيل النيابة الذي حقق معه وأدانه ، والقاضي الذي أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة لما تردّدوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذي

يقدر على الإنسان ما كسبت يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون . هي إرادة علوية تتصرف فينا منذ الأزل ، فليدع البشر حكم السماء للسماء !

واعتمد الشيخ عبد المتجلي رأسه بيديه ، وما لبث أن رفع في سبات لا يدري أطال به أم قصر ، ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطلعاً حوله وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أي وقت هو ؟ أفي مهبط الأصيل أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شيء حوله إلا الصمت والظلام . . . وأحسّ بالوقت يمر به الهوينى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد تعطلت حركته وجمد ... لقد أصبحى لا يفكر في شيء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجيء غريب ، شعور غامض لم يعرف كنهه يتوثب من أعماق قلبه منبعثاً له متغذياً ... وتكاثف هذا الشعور ، وازدحمت طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق ... وألقى في روعه أن الوقت الذي هو فيه إنما هو طلائع الصباح . وتأكد له هذا الحدس ، أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هي التي ألقت في روعه هذا الشعور ، أم بصيرته هي التي أوحت بذلك إليه ؟

الشمس الآن في طفولتها تتهادى على بساط الأفق بسامة تنثر الضياء وتذيع النشاط والحركة في رحاب الكون ، وهل لبي قط تلك الساعة الرائعة في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في منصرفه من المسجد وهو ينقّل حبات المسبحة بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التي ألف أن يختم بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حياه نسيم السحر وهو على المصطبة العتيقة أمام داره بسطت عليها مفارش صوفية زاهية الألوان ، وقد جلس يقرأ بعض كتب الشريعة والسِّيَر متذوّقاً مستمتعاً بما تُهديه إليه من غذاء روحيّ ورضاً نفسيّ ! ...

على هذه المصطبة نعم حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسة وصفاء ، وبادله أحاديث كلها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سدد إليه طلقاً ناريّاً أرداه قتيلا . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تزخر بطلاب الحاجات ومن يفزعون إليه يطلبون قضاءه في المنازعات ، كان يقضي

في هذا المكان شطر نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تعده أخته له بأريج الطهي مختلف الألوان شهيًا .

أخته !.. وتراءت له السكين المخضبة، وهو يمسحها في قبائه، ورأس القتيلة يتسايل منه الدم غزيراً ... أبريئة هي حقًا ؟ لقد اعترف « السعداوي » بأنه كان أفاكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار ... وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ ... إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها ... الله هو العالم بالنيات والسرائر ، فله وحده الحكم ، وإليه يُرجع الأمر كله !

وخيل إليه أنه يسمع شيئًا : أحركة هي أم صوت ؟ أرهف أذنيه ، وأمدّ من بصره ، إن الوقت صباح حتمًا ... وفاجأته رعشة ، لقد حدث أنه سمع قبل ذلك أصواتًا وحركات في مختلف الأوقات ، ولكن جسمهُ لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، فقيم هذه الرعشة الطارئة ؟ إنه يصغي في اهتمام ... لا ريب أن هناك حركة وهمهمة : أمن الدهليز صادرة أم من تلك الكوّة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ ... إنها أصوات ... إنه وقع أقدام .. وأحسّ بقشعريرة تسري في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحوّل كله آذاناً صاغية . أحُرّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم ... أم ...

وتسمّرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن والطبيب وشرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل ... وخُيّل إليه أن حدثاً يوجّه إليه ، وقطن إلى أن صدره يعلو ويهبط متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحد الحرّاس فطوره ، إنه أجود فطور وقعت عليه عيناه منذ حلّ في السجن ... ووجد يده تمتد في تباطؤ وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحسّ بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ، ولكنه استطاع أن يضبط أعصابه ، وأن يلقي باللقيمة بين شدقيه ... لقيمة واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض منقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح فمه بظهر يده ، وردّد في صوت أجهر من ذي قبل :

الحمد لله على نعمتك يارب ...

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألفى الجمع يتأهبون للخروج ، وقد عقدت ثقة الحراس حبله اطلاقاً ، وساروا جميعاً ...

كان يتقدم الموجه ، يازد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء . وشاعت على محياه بسمة غامضة : أبسمة أسى هي أم بسمة تهكم ؟ وكان لا ينفك يردد :

الحمد لله على نعمتك يارب !

وسار في الدهليز لغمره لجة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مبهمة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تواب . من هو الشيخ عبد المتجلي بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تجازي الناس سوءاً بسوء وإحساناً بإحسان ، أما الله جل شأنه فإنه لن يقابل الذنب إلا بالعفو والرضوان .

وسيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حجر السجن إلا بهذه المنصة الصغيرة التي تدلت عليها من السقف أحبولة مفتولة ... أتكون المشنقة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفزعة ، ليس فيها ما يبعث على العجب ، إنها لا تزيد بأرجوحة الصبيان في القرية

وتجمع إحساسه حول نفسه ، وتعمق في دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما حوله ولا بمن معه ، لقد أصبح نائياً عن المحيط الذي هو فيه بجسمانه . وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة ...

وخيل إلى الشيخ عبد المتجلي أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسباب الحكم عليه ، وأبصر خلف الضباب الذي كان يغشى عينيه شبحاً يدنو منه ويأخذ بكتفيه ، فألفى نفسه يدنو منه . ووجد قدميه تخطوان نحو المنصة ...

وفي هذه اللحظة طرق سمعه صوت قائل : ألا تشتهي شيئاً ؟ بماذا توصي ؟

وأحس يداً تدير الأحبولة حول عنقه ، فأجاب بصوت بين :

إني برئ ... كلا أرباه ... الله وحده هو الذي يملك الحكم على عباده !

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرفه الانسان عن جسمه وتفسه

في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

أكتب بهذا الاسلوب للمثقفين من الأطباء وغير الأطباء موضوعات تلتقي فيها المعلومات الطبية المبسطة بالمعلومات العامة وبعض ما له اتصال بشؤون الحياة الاجتماعية والنفسية والجنسية والخلقية وغيرها . ولعلي أوفق للوصول إلى الغاية التي أرمي إليها، لأني أشعر بحاجة الجمهور إلى ما يفيده من المعلومات الطبية المبسطة ليحافظ على صحته ويساعد طبيبه على العناية به إذا ما مرض .

وقد ابتعدت عما يشوش الذهن ويلقي الوساوس في النفوس، وتجنبت مناقشة النظريات التي لم يبت فيها ، مكتفياً بما اتفقت عليه الآراء واعتمده جميع الأطباء والباحثين .

حرارة الجسم

• كلنا يلاحظ أن للإنسان حرارة يشعر بها عند ملامسة جسمه أو ملابسه الملتصقة بجسمه بعد خلعها أو برقده على الفراش بعد تركه — فما هي هذه الحرارة ؟ وكيف تتولد ؟ ومن أين مصدرها ؟ وكيف توزع على أجزاء الجسم ؟ وكيف تتصرف ؟ هذا ما سنعالجه .

أصبح من المعلومات العامة أن حرارة الانسان الطبيعية normal هي حول ٣٧ درجة بالترمومتر المئوي . وهي حرارة شبه ثابتة . فقد تنقص أو تزيد بمقدار لا يتجاوز بضعة أشراط ، ومعلوم أن كل درجة من الترمومتر المئوي مقسمة عشرة أشراط .

• تنخفض هذه الحرارة بضعة أشراط وقت الجوع وأثناء النوم، وتزيد قليلاً على معدلها أثناء عملية الهضم ، وبعد مجهود عضلي شديد . وتتغير الحرارة على حسب أوقات الليل والنهار، فبعد منتصف الليل بين الساعة ٣ صباحاً والساعة ٥ صباحاً تكون في أدنى درجاتها إذ قد تصل إلى ٣٦ أو أقل قليلاً ، وبعد الظهر في نحو الساعة ٥ تكون في أعلى درجاتها إذ قد تصل إلى ٣٧ أو أقل قليلاً ، ثم تنخفض تدريجياً وهكذا . وقد تنعكس الآية فتزيد الحرارة في الليل وتنخفض في النهار في حدود هذا التغير البسيط عند من يسهرون

ويعملون في الليل ، ويستريحون وينامون بالنهار . وعلى أي حال لا تتجاوز عند الفروق زيادة أو نقصاً عن بضعة أشراط، وإن نقصت أكثر من درجة أو زادت أكثر من درجة عدَّ ذلك غير طبيعي ووجب البحث عن سببه .

• أدنى حرارة وصل إليها جسم الانسان — كما يحصل حينما يطمر في الثلوج — واستعاد بعدها صحته وقوته وحيويته بوسائل التدفئة والعلاج ، هي درجة ٢٤ مئوية وهذا نادر .

• يجب أن نشير إلى أن الحرارة في الحالة الطبيعية فضلاً عن أنها تتغير قليلاً في فترات الليل والنهار وأثناء الهضم — وبُعد المجهود العضلي كالألعاب الرياضية والجري والسفر الشاق وما شابه ذلك — ليست على وتيرة واحدة عند كل الأفراد . وإذا اتخذنا درجة ٣٧ حرارة طبيعية فذلك على حسب المشاهد بين ٨٠ و٩٠ في المئة من الأشخاص — فبعض الأفراد حرارتهم العادية ٣٦ دون أي مرض ، وتزيد بضعة خطوط وتنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها . وتعد عندهم درجة ٣٧ ازدياداً غير طبيعي في حرارتهم . كما أننا نلاحظ في أفراد آخرين أن حرارتهم الطبيعية ٣٧ دون أي عارض ، وهي تزيد أو تنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها، فعند هؤلاء لا تُعدّ درجة ٣٨ ازدياداً غير طبيعي، بل تعد درجة ٣٦ نقصاً غير طبيعي يجب البحث عن سببه .

• هذا الشذوذ يوجب على كل إنسان أن يعرف معدل حرارته الشخصية ليخبر بها طبيبه إذا ما مرض . ولتبين معدل الحرارة تؤخذ في فترات مختلفة بضعة أيام في الصيف وبضعة أيام في الشتاء مرة واحدة كل عشر سنوات ، أو في فترات التغيرات الطبيعية عند الإنسان أي في سن الطفولة قبل الخامسة وبعد الخامسة وفي سن البلوغ وفي سن الرجولة وفي سن الشيخوخة — والساعات التي تؤخذ فيها الحرارة لهذا الغرض هي الساعة ٨ صباحاً والساعة ١٢ الظهر والساعة ٤ بعد الظهر والساعة ٨ مساء والساعة ١٢ نصف الليل . وهذا مهم أثناء المرض ليقدر الطبيب ذلك العامل الشخصي عند تشخيص المرض وعلاجه.

***

• الحيوان على حسب حرارته نوعان : الأول ذو الدم الحار كالانسان والقردة والخيل والحمير ، والثاني ذو الدم البارد كالزواحف والسمك والبرمائيات .

فالإنسان وغيره من ذوي الدم الحار لا تتغير حرارته بحسب الجو المحيط به إلاّ مدة قصيرة، فلا تزيد بمجرد الحر ولا تقل بمجرد البرد إلاّ درجة خفيفة مدة قصيرة، وإن زادت أو نقصت كثيراً دخلت البلية في دور مرضي، خصوصاً إذا استمرت الزيادة أو النقص فترة

طويلة . والإنسان في ذلك كغيره من الحيوانات كالكلاب والقطة والقردة والغنم والخيل والحمير ، وكل الحيوانات الثديية والطيور وغيرها تعد حرارتها ثابتة لا تتغير بحسب الجو المحيط بها . وتسمى ذوات الدم الحار لتميزها عن غيرها من الحيوانات ذوات الحرارة المتغيرة على حسب البيئة التي تعيش فيها ، فإن كانت حرارة هذه البيئة ٣٠ كانت حرارتها ٣٠ وإن كانت ١٠ كانت حرارتها ١٠ وهكذا . وتسمى هذه الحيوانات ذوات الدم البارد مثل الزواحف كالثعابين والسحالي وما شابهها والسمك والبرمائيات وكثير من الحشرات . والدم هو الذي يوزع الحرارة على جميع أجزاء الجسم في كلا النوعين حتى تكون الحرارة متقاربة في كل الأعضاء .

***

• أجنة الحيوانات الثديية داخل الرحم تتبع حرارتها حرارة جسم الأم . ويلاحظ أن الحيوانات التي تولد وتستكف في الشتاء hibernating . وإن كان بعضها من ذوات الدم الحار تتغير حرارتها على حسب مقتضيات حرارة البيئة التي تعيش فيها مدة سباتها الاعتكافي في الشتاء .

• ثمة ظاهرة عند الحيوانات ذوات الدم الحار ، وهي أن حرارة الجلد أقل قليلاً منها في القلب الذي تقل حرارته عن الأمعاء ، وهذه حرارتها أقل قليلاً من الدم الذي تقل حرارته عن الكبد ، ولكن كل هذه الفوارق لا تتجاوز بضعة أشراط . وحرارة الجلد تسمى حرارة سطحية ، وحرارة الأمعاء تعد داخلية .

قلنا إن الحيوانات ذوات الدم الحار ثابتة الحرارة ، والسبب أن لديها وظيفة خاصة تكيف بها الحرارة في توليدها وتصريفها حتى تحافظ البلية على ثبات حرارتها بعملية فزيولوجية لا بد لفهمها من ذكر بعض معلومات تمهيدية .

• لاحظ كل من اشتغل في معمل الكيمياء أنه عند ما يجري بعض تجاربه الكيميائية ويضع محلولاً على محلول آخر يحدث بينهما تفاعل كيميائي ، وقد يحدث هذا التفاعل تغييراً في حرارة المخلوط نشعر به حينما نلمس أنبوبة الاختبار . وجسمنا معمل كيميائي معقد تحدث داخله تفاعلات كيميائية كثيرة بعضها يولد الحرارة وبعضها يمرفها .

وحديث التفاعلات الكيميائية يذكرنا ببعض ما عرفنا من احتياج الخلايا للأوكسجين والتخلص من ثاني أوكسيد الكربون ، إذ يحدث ما يسمى التأكسد oxidation . ونرى أن استهلاك الأعضاء والأنسجة والخلايا للأوكسجين وتخلصها من غاز ثاني أوكسيد الكربونيك وغيره من الفضلات يزيد كلما زاد عمل العضو ، ومن نتيجة هذه العملية تتولد

الحرارة . وهي عملية تشبه عملية الاحتراق لأن أنسجتنا تستهلك الأوكسيجين الذي يتحد مع المواد الكربية والدهنية ويحدث تفاعل أو شبه احتراق تكون نتيجته خروج غاز ثاني أوكسيد الكربون . وتنتج حرارة من هذا التفاعل .

« كما أننا إذا أوقدنا ناراً ووضعنا عليها وقوداً أوفر زاد شبوبها وطبها وكثر دخانها واستهلكت أوكسيجيناً أكثر من الهواء لمساعدة الاحتراق، كذلك يلاحظ أن أعضاء الجسم تحدث حرارة أكثر عند ما تعمل بالجهاد أثناء تأدية وظيفتها وتحدث حرارة أقل عند ما تعمل ببطء أثناء تأدية هذه الوظيفة . وتقل حرارتها التي تحدثها جداً حينما تكون ساكنة لا تعمل .

« أهم عضو في توليد الحرارة الجسمية هو العضلات ، ووزنها يساوي تقريباً نصف وزن الجسم ، فيجب أن تكون الحرارة التي تولدها مساوية لنصف حرارته . وقد شوهد بالاختبارات الفزيولوجية أن عمل العضلات يسبب ازدياد الحرارة درجة أو درجتين عن الحرارة الطبيعية ، وتتولد هذه الزيادة من ازدياد عملية تأكسد المواد الغذائية بعد امتصاصها والتي يحملها الدم إلى العضلات فتستهلكها وتتصرف فيها . وقد يتولد بعض الحرارة من العمليات الفزيولوجية في الكبد والأمعاء والغدد وغيرها من الأنسجة ، ولكن إذا وازنا بين العضلات وبين بقية أعضاء الجسم باعتبار كل منها مصدراً للحرارة فإن النسبة الكبرى من حرارة الجسم تولدها العضلات ، ويعد مصدرها من الأعضاء الأخرى تافهاً قليل الأهمية .

« زد على ذلك أن العضلات وهي ساكنة بدون إجهاد ولا حركة لها عمل وقوة خاصة tone لحفظ مفاصل الجسم في مواضعها وحفظ شكل الإنسان وقوامه وتوازنه ، وهذه القوة الخاصة tone وحدها تولد حرارة . وإذا ما فقدت العضلات هذه الخاصة بأن أصيبت بالشلل أو حدث فيها ارتخاء ، قلّ تولد الحرارة منها ، وهذا ما يشاهد في بعض الأمراض الناهكة للقوى ، إذ ترى بنية منهوكي القوى والطاعنين في السن إذا ما أصيبوا بعرض حُمّوي تكون زيادة الحرارة عندهم بسيطة جداً بالنسبة لما يجب أن تكون عليه عند الأصحاء ، وهي علامة سيئة لا يطمئن إليها الأطباء ، وتسمى هذه الحالة « حمى بدون حرارة » apyrexial fever .

« إذا اعتبرت الحرارة في التولد بواسطة العضلات وغيرها وجب أن تستمر حرارة البدن في الازدياد . ولذا أوجدت الطبيعة وظيفة أخرى فزيولوجية لتصريف الحرارة من الجسم لمقدها حتى تعتدل وتكون ثابتة ، والأعضاء التي تؤدي وظيفة تصريف الحرارة « هي الجلد بالعرق وغيره ، والرئة مع التنفس ، والكلى بواسطة البول ، والأمعاء بواسطة البراز ، بالوسائل المختلفة التي سلذكرها . وأقل هذه الأعضاء أهمية في تصريف الحرارة هي

الأنسجة والأعضاء . وانتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصريفها يسمى اصطلاحيًّا «تكييف البدن لحفظ حرارتها ثابتة » .

• العضلات إذاً هي وسيلة الحركة البدنية ومولدة الحرارة . والجلد هو غطاء الجسد الخارجي وله وظائف كثيرة أهمها تصريف الحرارة . وهو عضو من أعضاء الجسم الرئيسية له جملة وظائف هامة ، لا مجرد غطاء . وتستمد العضلات موردها لتوليد الحرارة من المواد الغذائية التي تأكلها ، ولكل نوع من أنواع الطعام مقدرة على إعطاء وحدة حرارية أو طاقة حرارية (سُعُر calory) خاصة به تستمين العضلات بها لتولد منها الحرارة أثناء عملية التبادل الغذائي metabolisme في أنسجتها ، بأن تأخذ الأوكسجين وتعطي فاز ثاني أوكسيد الكربون . ووحدة الحرارة (سعر calory) هي مقدار الحرارة الكافي لرفع حرارة لتر واحد من الماء درجة مئوية واحدة من الحرارة .

ويعد الرجل المعتدل في جسمه وعمله محتاجاً لمواد غذائية تعطي ٣٠٠٠ وحدة حرارية في أربع وعشرين ساعة يحصل عليها من الطعام الذي يأكله فيُهضم في الجهاز الهضمي ثم يمتص في الأمعاء ويسير في الدم إلى القلب فيوزعه على أعضاء الجسم المختلفة . وعند ما تستيقظ خلايا الجسم ويحصل التفاعل تتولد الحرارة اللازمة . والدم هو الذي يوزع الحرارة على كل أعضاء الجسم كما ذكرنا آنفاً .

• أجريت جملة تجارب فزيولوجية لمعرفة ما يصرفه الجسم من وحدات الحرارة ، ولتقديره أثناء الراحة التامة والرقاد مدة ٢٤ ساعة ، فوجد أنه تلزم وحدة حرارة واحدة في الساعة الواحدة لكل كيلو جرام واحد من وزن الجسم . أي أن الرجل الذي وزنه ٧٠ كيلو يحتاج ١ × ٧٠ × ٢٤ = ١٦٨٠ سُعراً ليعوض بها ما يفقده جسمه منها . ويحصل عليها من غذائه . فالطعام هو الواهب والنبع لانتاج الحرارة ، وأعضاء الجسم وأهمها العضلات هي التي تولدها مما يصل إليها من المواد الغذائية بعد هضمها وامتصاصها .

• المواد الغذائية هي المواد الزلالية protéines والمواد الدهنية fats والمواد النشوية carbohydrates . والمتفق عليه بعد عدة تجارب أن كل جرام من المواد الزلالية يعطي من وحدة الحرارة ١ر٤ ، وكل جرام من المواد الدهنية يعطي ٣ر٩ ، وكل جرام من المواد النشوية يعطي ١ر٤ .

• المواد الزلالية هي أهم المواد الغذائية التي يستمد منها الجسم حرارته ، ولذا نرى أن الإنسان يميل بغريزته لأكلها مدة الشتاء لاحتياجه لحرارة جسمية لمقاومة البرد في الشتاء

أكثر من الصيف ، حقًّا إن المواد الدهنية تعطي وحدات حرارة أكثر ، ولكن زيادة الأكل منها تحدث اضطرابات في المعدة . وسكان البلاد الباردة على وجه العموم أغلب طعامهم اللحم والفشل من الشحوم والسمك والمواد الدهنية . وعندنا في مصر يقول العامل : أشتغل لأحصل على الخبز والملح ، أما في أوربة فيقول : أشتغل لأحصل على الخبز والزبدة !

• كلنا يلاحظ كثرة العرق في الصيف وقلته في الشتاء ، والسبب في ذلك أن الجسم محتاج لفقد حرارته حتى لا تزيد من شدة الحر ، لأن العرق يتبخر والتبخر يمتص الحرارة فتقل حرارة الجسم ولا تزيد على حسب حرارة الجو الموجودة فيه . ويلاحظ أن أوعية الجلد الشعرية تتسع فيحمر الجلد فيمر الدم في هذه الأوعية بغزارة لكي تساعد على كثرة العرق وتلطيف الحرارة . وأما في الشتاء فيلاحظ انقباض الأوعية الشعرية وقلة العرق أو فقدانه لكي لا يفقد الجسم حرارته . ويلاحظ في الصيف أيضاً نشاط الرئة لكي تتلطف حرارة الجسم بالتبخر مع التنفس . وفي الشتاء يقل نشاط الرئة .

• من الأسئلة التي يسألنا إياها الجمهور : لماذا يقل البول في الصيف؟ بل لقد حضر عندي مرضى عصبيون يشكون قلة البول في أيام الحر ، والجواب سهل لأن العرق يكثر في الصيف ويتصرف الماء من الجسم بواسطته وبواسطة التنفس . ويمكنني أن يضع المرء أمام فمه سطحاً مصقولاً مثل المرآة ويتنفس فيها ليرى قطرات البخار متجمعة على صفحتها .

وفي الشتاء يزيد البول لقلة العرق ولقلة ما يتصرف من البخار مع التنفس ، وإن كنا نشاهد البخار مع التنفس في الشتاء ، وذلك راجع لبرودة الجو لا لكثرة التبخر في الشتاء .

وتقدر كمية العرق في مدة ٢٤ ساعة لشخص سليم وفي جو معتدل لا حار ولا بارد بنحو ٧٥٠ جراماً وتركيبها مبين في الجدول الآتي على وجه التقريب . ففي كل مئة جرام يوجد

٩٩ — جرام ماء
٤ جرام — كلورور الصوديوم
٨ جرام — يوريا
آثار — صفات الصوديوم وكلورور البوتاسيوم وأحماض دهنية

وفي الحالة الطبيعية وفي الجو المعتدل تفرز الكلى أكبر كمية من الماء الذي تفقده البنية ، وجزء من هذا الماء يفقد من الرئة ومن الجلد ومع التبرز . وفي الجو البارد يزيد إفراز الكلى للماء وتزيد كمية البول إذ يقل العرق . وفي الجو الحار يكثر العرق ولذا تقل كمية الماء التي تفرزه الكلى فتقل كمية البول .

• يعرق الإنسان في الجو المعتدل الحرارة ولكنه لا يشعر به لأن الملابس تمتصه وتبخره، وأما في الصيف فإنه يشعر به لكثرته .

• إذا ما انتقل المرء من مكان بارد إلى مكان دافئ كيف الجسم حرارته لكي تكون ثابتة بواسطة وسائله في زيادة توليد الحرارة ووسائله في زيادة تصريفها ، والعكس بالعكس . وللوصول إلى انتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصريفها وتماونهما وانسجامهما في الجسم ، يوجد في المخ مركز منظم للحرارة ، ولم يحدد بعد مكانه بالضبط ، ولكنه في أحد المواضع الآتية :

الجسم المخطط corpus striatum ، أو المهد البصري ophie rhalamus أو الجزء أسفل المهد البصري hypothalamus .

وبعد هذا المركز الأعلى لتنظيم الحرارة، فهناك مراكز مساعدة له في النخاع المستطيل ، وهذه المراكز هي التي تنظم وتكيف الحرارة وفق حاجات البنية فتنبه أعضاء توليد الحرارة لتزيد نشاطها فتعطي حرارة أكثر أو تهدئ وظيفتها لتعطي حرارة أقل ، كما تنبه أعضاء تصريف الحرارة من الجسم وتنشطها فتصرف حرارة أكثر أو تهدئها ليكون فقد الحرارة أقل ، ويتبع ذلك زيادة احتياج الانسان للطعام والماء أو نقص احتياجه .

• قلنا إن حركة العضلات وانقباضها تزيد حرارة الجسم، ولذا يحتاج الإنسان في الجو البارد لأن يجري تمرينات عضلية وألعاباً رياضية وسيلة لتدفئة وتنشيط البنية . والملابس لا تزيد توليد الحرارة وإنما تحفظها من التبخر والتشعع بواسطة الجلد لكي لا يفقد المرء حرارة جسمه بسهولة ، ومن يكثر من الملابس في الشتاء ويبقى جالساً في مكانه لا يكون جسمه نشيطاً لأن أعضاءه لا تعمل على إيجاد حرارة فيه . ويلاحظ في الشتاء أن المرء يكثر من الأغطية عند رقاده في الفراش لأن توليد الحرارة أثناء الراحة والنوم يكون أقل بكثير منه أثناء اليقظة والحركة ، فيستعين الانسان بالتدثر للمحافظة على الحرارة . والملابس الصوفية لها هذه الخاصة أكثر من غيرها لضيق مسامها، ولذا تتخذ في البرد وكذا الفراء لكثرة وبرها. وأما ما يتخذ للباس من الأصناف الأخرى مثل الجلد فإنه يحفظ الحرارة أكثر لتماسك أجزائه وعدم وجود مسام فيه بعد دبغه ، ويلاحظ في مصر أن بعض من يخشون البرد يضعون ورق الجرائد على صدورهم ويشعرون بدفء من ذلك ، لأن الورق متماسك الأجزاء خال من المسام لا يتخلله الهواء ، مثله كمثل الجلد المدبوغ.

• ويجب الاحتراس من كثرة الملابس لأنها تسبب الخمول وتسهل عند خلعها الإصابة

بالبرد كما أنها تعوق البلية عن المحافظة على حرارة الجسم بنشاطها وعملياتها الفزيولوجية ، وبحدث مثل هذا الضرر من كثرة التدفئة في الغرف ، وقلة الملابس لها عكس هذا الأثر إذا ما كانت في حد المعقول لكي لا تضر . وفي البلاد الحارة كبلادنا يجب ألاَّ تضيق الملابس بحيث تكثر العرق وتعوق تبخره .

والدجاجة ترفد على صغارها وتجمعها حولها لتدفئتها بحرارة جسمها إلى أن يخرج ريشها فتستغني به .

• ثمة مسألة هامة تحتاج إلى التنبيه ، وهي أنك في فصل البرد إذا دخلت منزلاً يجب أن تخلع رداءك الخارجي (المعطف) وتضعهُ في مكان غير بارد ، ومما يؤسف له أن أكثر الناس يضعون في منازلهم أماكن وضع الرداء بجوار الباب الخارجي ، أي في مكان بارد ، فعند ما يلبسها المرء وهو خارج من الغرفة يشعر ببرودتها وتضايقه هذه البرودة فيحسن أن تخصص المعاطف مكاناً غير مجاور للباب الخارجي . وعند خروجك من منزل في الشتاء لا تخرج بسرعة من حجرة دافئة إلى برد الشارع مباشرة ، بل يجب الخروج تدريجاً ، أي من حجرة دافئة إلى ردهة أقل منها دفئاً ، ثم تلبس رداءك وتخرج ، لكي لا تتأثر ببرد الشارع . ومن هنا تحسن السيدات صنعاً بكثرة الكلام وطول الحديث في الردهة قبل الخروج ، لأن هذه الفترة تمهد لأجسامهن التكيف لاستقبال تغير الحرارة .

• وفي الصيف يستعين المرء بما يخفف الحرارة ، ومن ذلك قلة التغذية خصوصاً قلة المواد الزلالية والمواد الدهنية وتخفيف الملابس ، ونجد الطبيعة تساعدنا بكثرة العرق الذي يتبخره بعض الحرارة من الجسم فتقل ، ونرى أوعية الجلد الشعرية تتسع فيغزر الدم فيها فيزيد العرق وتفقد الحرارة بواسطة التشعع أيضاً أكثر مما لو كانت الأوعية الشعرية منقبضة . ويلاحظ أن الكلاب يكثر نفسها ويسرع لمزاولة الوبر على جسمها . وهذا التنفس الكثير السريع وسيلة من وسائل فقد الحرارة من الجسم بواسطة التبخر من اللسان والفم ومن الرئة ، ونرى الكلاب في الصيف أيضاً تبحث عن مكان بارد مثل الرخام أو الحشائش وترقد عليها لتفقد الحرارة بتوصيلها من جسمها إلى الأشياء الباردة ، لأن وبر جلدها يمنع تشعع الحرارة ويمنع فقدها بواسطة الجلد ، وليس عند الكلاب غدد عرق سوية ، فالجلد عندها قليل الفائدة إذا نظرنا اليه من جهة تصريف الحرارة .

« يتبع »

أبو العلاء وبيئته

في أي شيء أطاعها وأي شيء عصاها؟

لدكتور مرقص

من أعضاء المجمع العلمي العربي

كانت بيئة أبي العلاء بيئة تطاحن وتنازع له أول وليس له آخر في العقائد الدينية والمذاهب السياسية والنظريات الاجتماعية، وكان المسلمون منقسمين إلى فرق كثيرة قائمة في وجه أهل السنة — وهم الفريق الأعظم والأشهر — فمن تلك الفرق الشيعة والمعتزلة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة والمجسمة والظاهرية. مع أن الإسلام في عصرنا الحاضر منحصر في ثلاث فرق هي السنية والشيعة والوهابية.

وكان الخليفة العباسي السابع وهو المأمون ابن الخليفة هرون الرشيد علامة الخلفاء غير مدافع يطلق العنان لكل واحد من خواص رعيته في ميادين التفكير والبحث والاعتقاد بشأن الدين والعلم والفلسفة. فلما توفي وأسندت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله نهج منهجه في هذا الإطلاق وهذا التسامح، ثم أفضت الخلافة إلى ابن المعتصم الواثق بالله، والمظنون أن منهجه في ذلك كان وسطاً بين الشدة واللين، ثم أعقبه أخوه جعفر المتوكل على الله فشدد النكير والعقاب لكل من خالف أهل السنة منحرفاً نحو التعطيل أو الزندقة وكذلك كان شأن من جاءوا بعده من الخلفاء في التشديد والاستكبار. ومن ثم أصبح المفكرون بغير ما يرضي الدولة وسواد الأمة، يستترون ويتحجبون. واتفق فريق من كبار المفكرين قبل نبوغ أبي العلاء بسبعين أو ثمانين سنة على آراء فلسفية لها تأثير عظيم في عقائد الدين ورسومه وألفوا في السر جمعية منهم سموها جمعية إخوان الصفا وأصدروا على التوالي نيفاً وخمسين بحثاً هي المساة في أدبنا العربي برسائل إخوان الصفا دسوها بين الناس بطرائق خفية وكانوا يزعمون أن الشريعة دنستها الجهالات لأنها أدخلت عليها ما ليس منها. وإنما يمكن إصلاحها وردها إلى الطهارة باستنجاد الفلسفة اليونانية بما لا يخالف جوهر الدين الإسلامي من هذه الفلسفة. وفي رسائلهم فندوا وعابروا أشياء كثيرة في السياسة. وقد وافقوهم على آرائهم

ومذهبهم فريق من خاصة الناس وخالفهم فيه فريق آخر، ولا غرو فان مطالبهم ومباحثهم العويصة من جهة الذات الالهية والقضاء والقدر والثواب والعقاب وقدم العالم وحدوثه وما جاور هذه الموضوعات كانت وما زالت مثار الجدل والمناظرة والحيرة والشك من أوائل نشأة العلم والفلسفة إلى أيامنا الحاضرة. ومن علماء تلك المؤسسة الفلسفية جمعية إخوان الصفا الذين اتصلت بنا أسماؤهم زائد بن رفاعة ومحمد البستي وأبو الحسن وأبو أحمد. وكان أصحابها يكتمون أسماؤهم خوفاً من أن يصيبهم أذى أو ضيم من قبل الدولة أو قبل فئات من الشعب.

فظاهر أبو العلاء وفي رأسه عقل جبار وبين جنبيه نفس جريئة طموح واطلع على ذلك المعترك الديني العلمي الفلسفي في ميادين الفرق الدينية وفي جمعية إخوان الصفا وفي اختلاف نظريات العمران والاجتماع والسياسة — استهوته هذه المباحث وكان لها عليه وقع بعيد الأثر فجعلها دأبه وديدنه ويدور منه بوادر أقوال وآراء يستنكرها الأكثرون. ولما كان أسرع عودته عنها إلى ما نشأ عليه في حجر أبويه من عقائد ومبادئ. وسأورد ذلك بإيضاح.

ومرّ أبو العلاء في إحدى رحلاته بمدينتنا اللاذقية هذه وكانت أعظم وأجل بكثير مما هي عليه الآن. وفي أثناء إقامته هنا — ولا أعلم مدتها — عرف راهباً يونانياً من أهل الذكاء والعلم وهو من رهبان دير مار جرجس المبني على هضبة القارون، وإلى جانب الدير كنيسة باسم هذا القديس الشهيد سماها الناس حينئذٍ «كنيسة نصف البلد» وهي تسمية تدل دلالة واضحة على عظم المدينة واتساعها في عصر أبي العلاء. والظاهر أن الراهب اليوناني كان يحسن أيضاً التعبير باللسان العربي، فكلفه أبو العلاء أن يطلعه على أشياء في الفلسفة اليونانية فقبل، ولا نعلم أي ناحية فلسفية اختارها أبو العلاء: أفلسفة ما وراء المادة أم فلسفة القوى العقلية أم فلسفة الاجتماع ونظم العمران أم ماذا؟ وذكر أبو العلاء اللاذقية ذكراً كنا نود وروده بغير السياق الذي اختاره. قال:

في اللاذقية ضجّة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعظّم دينه يا ليت شعري ما الصحيح

ولو كنت إلى جانبه يوم نطق بهذه الأبيات لقلت له: رويدك يا أستاذنا وموضع جبينا وإكرامنا. إن ضجة الخلاف والمشادة لم تقم قط بين أحمد والمسيح بل بين تبّاع هذا وتباع ذاك، فقد أوصلتهم طرق التعليل والتأويل والاطراد والتدريج إلى اختلافات وتباين

سحيقة مع بقاء أحمد والمسيح على اتفاق تام في جوهر العقيدة والمبدإ. وكيف يمكن أن يقع اختلاف جدي ونفور بين رجال الله وأصفيائه عزّ وجلّ ؟

ولما مرّ أبو العلاء بطرابلس وكانت فيها مكتبة عامرة كلف بعض الناس أن يقرأ له شيئاً من محتوياتها على حسب اختيار المكلف ، ففعل وأضاف ما استمرأه ذهنه منها إلى ما عنده من علم وأدب .

***

وكما أثرت في أبي العلاء بيئته باستدراجه إلى قضايا الدين الجدلية أثرت فيه كذلك باستدراجه إلى زخرف الكلام وتزويقه بالبدائع اللفظية من جناس وتقفية ولزوم ما لا يلزم مع ما يجاور هذه الصور من طول الاستطرادات وعبارات الدعاء والمجاملة ، فإن أدبه نظماً ونثراً يمثل إلى حد البطنة بهذه الأغذية وبينها ما لا يخلو من قبول ودسم وما هو تافه تماماً ليس له طعم ولا يرجى من وراء مضغه وتمثيله مدد وعافية . وكذلك كان مذهب أدباء ذلك العصر وما تقدمه وتخلف عنه . ومن مشاهير أصحاب هذه الطريقة أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبو منصور الثعالبي والوزير المهلبي والحريري والصابيء وابن العميد والصاحب بن عبّاد . وكل هؤلاء كان إنشاؤهم ناصعاً جميلاً دالاً على مقدرة عجيبة وذخيرة وافرة من أوضاع اللغة ومجازاتها . ولكننا لا نشك أنهم كلهم وبينهم أبو العلاء المعري لو لم يتقيدوا بهذه الطريقة التزويقية لجاء إنشاؤهم أجمل وأمتن ولما عابه ما في بعضه من أثر التكلف والاعنات والاسهاب الممل . ونريد بذلك الاشارة إلى طريقة إنشائية غير طريقتهم، طريقة الحرص على الرشاقة في مواضعها والجزالة في مواضعها بغير تسجيع وتصريع وترصيع إلاّ ما جاء من ذلك عفو الخاطر . هكذا كان مذهب فحول إنشاء آخرين نبغوا في صدر الاسلام قبل من أوردنا أسماءهم ومنهم عبد الحميد الكاتب وعمرو بن مسعدة الكاتب والجاحظ وابن المقفع وزياد بن أبيه والمهلب بن أبي صفره والحجاج بن يوسف الثقفي . وأما من ظهروا بعد أولئك فمن أشهرهم ابن خلدون وجلال الدين السيوطي . وبديهي أن ديوان الزوميات لأبي العلاء لم يظهر على تلك الصورة إلاّ مجاراة لذلك المذهب في البديع اللفظي .

وأطاع أبو العلاء أيضاً بيئته في مظهر آخر من مظاهر الأدب العربي لم يكن عصره يستهجنه أو يستغربه ولا ما تقدمه وتخلف عنه من عصور القدماء والمولدين . والمراد به باب

المدح والفخر، فقد دخله أبو العلاء صريحاً فصيحاً . وأظن ظناً راجحاً يقرب من اليقين أنهُ تعمد الافتخار بنفسه رداً وردحاً لما كان يلمحه من مساعي خصومه وحسادهِ وفلتات أقلامهم وألسنتهم عنده . وكان يعلم أن بين رجال العلم والأدب جمهوراً يغتفرون له وبه شوذ أزره إذا رأوا ضرورة لمؤازرته . ولولا هذا الحافز الذي يعذره عليه كل عاقل عادل لما خرج قيد شبر عن شرط الدعة والتواضع كما هو المعهود في أمثاله من العلماء الأثبات

ومما يروى عن أفلاطون الحكيم اليوناني الشهير تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أنه قال . قضيت حياتي في طلب العلم والشيء الوحيد الذي علمته إلى اليوم هو أني لا أعلم شيئاً . ويروى عن أبي عبيدة العلامة الراوية العربي في صدر الدولة العباسية أن شاباً سأله مسألة لغوية فقال له أبو عبيدة : لا أدري . فارتاب الشاب في صدق جوابه وظنه يحاول أن يضن عليه بالفائدة ، فقال له : كيف تقول في هذه المسألة لا أدري وإليك تضرب آباط الابل من مفاوز البلاد ومغاربها انتجاعاً لفضلك ، وكان في أبي عبيدة حدة طبع وحدة لسان فأجابه ويحك لو كان لأمك بعر بقدر ما لا أدري لاستحت . وكان من العاملين في دار الحكمة ببغداد على عهد الخليفة المأمون عالم وقور تناهى في السن، فسأله أحدهم مسألة أدبية أو فقهية فقال له لا أدري، فاستغرب الجواب وقال له : إن أمير المؤمنين يجري عليك من الخيرات والأرزاق كل شهر جرايةً عالية ثم تسأل سؤالاً واحداً فتقول لا أدري، والله إن هذا لمن العجب العجاب . فأجابه بلين وتؤدة : « يا بني إن أمير المؤمنين أيده الله إنما يجري عليّ خيراته جزاء لي على ما أدري ولو كانت عطاياه جزاء على ما لا أدري لنفدت خزائنه قبل أن ينفد جانب يسير مما لا أدري » ولما بلغت مقالته المأمون قال : هذا هو العالم الحق. ثم زاد في إكرامه ورعايته .

هذا شأن العلماء الناضجين في التواضع وإنكار الذات ، ولا شك أن أبا العلاء أحد الممتازين بينهم . ولكن هؤلاء المتواضعين إذا تعمد متعمد أن ينتقصهم أو يهينهم فلبرت فيهم أنفة وشمم لقمع كل عدو ومفتر وكبح جماحه . وإلى هذا الناموس الاجتماعي أشار الشاعر بقوله :

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينفعان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن أهنت معلما

ولعلَّ هذا الناموس الاجتماعي فكر فيه أب عاقل حين أوصى ابنه وقال له في جملة وصيته : « يا بنيَّ لا تمار العلماء فيحقدوك » والمماراة هي سوء الجدل أو إدخال العناد

والمماحكة في الجدل . ولا يخرج عن هذا الصدد ما رواه بعضهم من أن تائباً مغروراً بنفسه كان يعمل في حقل الأدب فنظم أبياتاً وأسمعها أحد رجال الفن والبغة فطرق أذن العالم منها لفظ استنكره وسأل الناظم عنه سؤال متعجب : ما الذي تريد به ؟ فأجابه الشاب مكابراً « هذا حرف في العربية لم يبلغك » فابتسم الشيخ وقال له : « يا ابن أخي لا خير لك في علم يبلغني منها » يريد أنه لا يفوته منها شيء .

وهذه الدعوى ما كان ليظهرها لو لم يلجئه اليها الشاب بغروره وغطرسته . أفلا يظن القارىء مثلي أن أمثال هذه الدواعي هي التي ساقت أبا العلاء إلى تمدحه وافتخاره بنفسه ولا سيما في قصيدة لامية له مشهورة ؟ ومنها قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد ناوحت كل خفية يصدق واش أو يخيب مسائل
بفاخر يومي في أمسي تطولا وتحمد أسحاري علي أصائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

إن لمن يقول في أواخر القصيدة بلهجة سادّة تدل على التعريض مع منتهى السخط والاشمئزاز مما يؤيد رأينا في الدواعي التي دعت الناظم إلى هذا التمدح والافتخار :

إذا باهت الأرض السماء سفاهةً وعيّر قنّا بالفهاهة باقلُ
وقال السها للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل
فيا موتُ زر إن الحياة ذميمةٌ ويا نفسُ جدّي إن دهرك هازلُ

ثارت ثائرة أبي العلاء لذلك الوضع المعكوس في المجتمع البشري لعهده مما أشار اليه بهذه الاستعارات البليغة، فما قول القراء فيه رحمه الله وغفر لنا جميعاً لو أدرك عهدنا الحاضر وشاهد ما نشاهد وأحس بما نحس به من عجائب الشواذ وغرائب المتناقضات.

***

ومن تأثير بيئة أبي العلاء عليه ما رآه حوالَيه من مفاسد الناس وتناقضهم ولؤمهم فأساء ظنه فيهم وفي الدنيا التي احتوتهم، ومن ثمّ نما فيه خلق التشاؤم وأعراض السوداوية وكانا قد اختمرا في نفسه بما أصابه من العمى في طفولته ثم بفقده أبويه ، ولما فقد الوالد منهما لم يكن الولد إلاّ صبيًّا ناصراً في الرابعة عشرة من عمره . وأما أمه فتزوجت وقد نيف على الثلاثين ولأجلها أسرع في ترك بغداد عائداً إلى المعرة لكي يودعها قبل موتها فلم يبلغها إلاّ

وهي في قبرها . كل هذه الحوادث الثكلة توالت على أبي العلاء فطبعت أقواله بطابع الكآبة البالغة حد اليأس .

فرغنا من أهم ما أثرت به البيئة في أبي العلاء ، وحان لنا أن نلتفت إلى ما عصمها فيه :

كان الغالب على بيئة أبي العلاء رغد العيشة ورفاهيتها ومباهاة الأقران بكثير من كماليات الحياة . وهذه المظاهر الباسمة لخلابة لم تجد لها أصغر موقع ولا أقل منتجع في نفس شاعرنا العظيم وفيلسوفنا الحقيقي بل تنكب طريقها واكتفى له بمستغل له صغير ورثه عن أبيه لا يزيد دخله السنوي على ثمانين ديناراً مما يساوي بالتقريب ٣٥ ليرة ذهبية من نقود أيامنا الحاضرة، وهذا المبلغ كان ينفقه على نفسه وعلى خادم له خاص في معيشة بسيطة مأكلاً ومشرباً وملبساً ومأوى ، وكان يغلب على طعامه العدس المطبوخ وقد تعمد تجنب اللحوم بعد ما اجتاز الأربعين من العمر عاملاً برأي فلسفي كان يقول به ، وهو ضائع يومئذ بين فلاسفة الهند ومؤدداه أو الانسان حيوان ناطق لا يجوز له سلب حياة شيء لكي يغذي حياته ، بل يجدر به أن يكتفي بالثمار والنبات .

ولعلّ أصدق صورة ذهنية تنطبق على أبي العلاء في استقامته ونقه بنفسه واحتياطه من شرور الناس أبيات للطغرائي في لاميته الشهورة وهي هذه :

وما صدقك بين الناس كذبهم ... وهل يطابق معوجّ معتدل

أعدى عدوك أوفى من وثقت به ... فاحذر الناس واصحبهم على دخل

وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعوّل في الدنيا على رجل

وأوضح خلة عصى بها أبو العلاء بيئته هي الأنفة وعزة النفس، وكانت البيئة عنيفة في صميمها وزواياها رجال التملق والتزلف والنفاق استدراراً للمال من أيدي الملوك والأمراء والأعيان والأغنياء ، وهذه الخلة هي أخت شقيقة لما ذكرناه من قناعته ورضاه بالطفيف البيض، ومما يروقنا ذكره ويعزينا بعض التعزية عن مفاسد الزمان وأهل الزمان أن جماعة من رجالات العرب كانوا على هذه الشاكلة ومنهم الامام الشافعي القائل :

علىّ ثياب لو تباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا

وفيهنّ نفس لو تقاس بفضلها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

والقاضي أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني وهو القائل :

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موطن الذل أحجما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وفي موضوع الآباء وعزة النفس تحضرني خاطرة سديدة من خواطر الأدب الفرنسي وهي للكاتب الفرنسي لاروشفيكو إذا صدقتني الذاكرة . قال : « ليس من الويل أن تحسن إلى لئيم فيبخسك حقك ويجحد معروفك . ولكن الويل كل الويل أن تحتاج إلى لئيم يسعفك إسعافاً خفيفاً ثم يمن عليك طول حياتك منّاً لا تحطه أرض ولا سماء »

***

بقي علينا أن نذكر شيمة واحدة من الشيم الكريمة التي خالف بها أبو العلاء بيئته بل خالف معظم ما عهدناه من البشر في كل مكان وكل زمان . وأظن هذه الشيمة تفوق جميع الشيم في نبلها وعلو قدرها ، وأريد بها شيمة الأنفة أو إنكار الذات . فإن أبا العلاء على ما هو عليه من سخف ثقته بالناس وشدة اعتيائه من مفاسدهم كان قلبه الكبير ينطوي على ود صحيح لهم وإرادة كل خير وبركة تشملهم ، ومما يدل على شفقته الفطرية عدم استحلاله لحم طير أو حيوان أو سمك لأجل تغذية الإنسان . ثم إذا رأينا الأمير أبا فراس الحمداني يقول ولو في معرض تسيب وتشبيب :

معللتي بالوصل والموت دونه إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

وبهاء الدين زهيراً المصري يقول :

وإذا ما متُّ من ظمإٍ لاجرى من بعدي النيلُ

رأينا أبا العلاء المعري ، وكان عصره بين عصريهما يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء لو رزقه الله ثروة واسعة ومع نفوذه الأدبي سطوة حكم رسمي جاء بالشيء الكثير من أعمال الخير ومشروعات الإصلاح : وعنده مئية تشعرنا بصدق الشعور في قول من قال :

كفى حزناً أن الكريم مقترٌ عليه ولا معروف عند بخيل

اللاذقية (سورية)

مياه عين الفيجة *

﴿ لمحة تاريخية ﴾ كانت مياه الفيجة في أيام الرومان كما كانت في أيام العرب موزعة بواسطة قناة محفورة في الصخور، مارة على سفح الجبل في وادي برَدَى من نبع الفيجة حتى أعلى نقطة في حي العمالية، ولا تزال آثار هذه القناة موجودة إلى يومنا هذا، ولكنها خربة في أكثر أقسامها. وهذه القناة كانت تسقي القرى الواقعة بين نبع الفيجة ومدينة دمشق، وما زاد منها بعد ما تأخذ مدينة دمشق حاجتها يتخذ لأعمال الري. وكان الاهمال سبب تخريب هذه القناة إذ أن صيانتها وترميمها وإصلاحاتها كانت تقوم بها، على ما يظهر، لجان من أهل المدينة والقرى على طريقة كري الأنهر المتبعة الآن في غوطة دمشق، ولذلك صارت عرضة للتخريب بسبب هجرها وعدم العناية بها.

وكذلك بقيت مدينة دمشق مدة طويلة محرومة المياه النقية. وكانت تستعمل مياه الأنهر التي كانت موزعة على البيوت بشكل طوالع وبحرات وجداول توزيعاً ضئيلاً دقيقاً، فتستقي البيوت منها حاجاتها للشرب والاستعمال باستمرار وغزارة. إلاَّ أنها كانت غير نقية، ولذلك كانت المدينة دوماً عرضة للأمراض والأوبئة. لهذه الأسباب لم يكن بد من وجدان مياه نظيفة صافية لأجل تأمين شرب الأهلين ولانقاذ دمشق من الأمراض والأوبئة. وعلى ذلك فكرت الحكومات منذ خمسين سنة ونيف في جلب كمية كافية من نبع الفيجة، وقد تأسس في ذلك الحين مشروع لإسالة مياه الفيجة بواسطة قساطل حديدية. وتم تنفيذ المشروع في زمن الوالي التركي المشهور ناظم باشا. وكانت للمياه النقية المسحوبة تبلغ ألفي متر مكعب وُزعت على ما يقرب من خمسمئة سبيل كانت تسيل في ساعات معينة في الصباح والمساء، وبذلك أنقذت المدينة من تفشي الأوبئة.

﴿ تأسيس مشروع الفيجة العام وتوزيعه على البيوت ﴾ قام بدرس هذا المشروع بعض رجالات دمشق في عام ١٩٢٢ إذ كانت حاجة العمران تقضي بتوسع المدينة. ولما كانت المياه الموجودة لا تكفي للقيام بإنشاء أبنية حديثة فكروا في جلب كميات كافية من نبع

* استندنا في كتابة هذا البحث الى استطلاع شخصي فضلاً عن بيان بعث به الينا السيد خالد سعيد المحكيم المهندس المختص

الفيجة التي يبعد عن دمشق ثلاثة وعشرين كيلو متراً فهو أقرب الينابيع إلى المدينة، ومياهه غزيرة ونقية من وجهة التحليل الجرثومي والكيميائي وكان قسم من مياهه قد سبل في أنابيب ووزع بواسطة الاسالة . فتقرر في ذلك التاريخ تأسيس لجنة باسم «لجنة مياه عين الفيجة» في سبيل درس مشروع جديد لجلب مقادير كافية ، تمهيداً للتوسع العمراني ، لأن الكمية الموزعة بواسطة الاسالة عادت لا تكفي لري الاهلين . فتألفت عندئذٍ في دمشق جمعية بالاشتراك مع غرفة التجارة لتهيئة المشروع والدعوة اليه . وإذ كان هذا المشروع من المشروعات العامة اتفقت جمعية ملاكي الماء مع بلدية دمشق على تنفيذه بعد أخذ امتيازه من الحكومة، وذلك بالرغم من وجود شركات أجنبية كانت تسعى إلى أخذ الامتياز على قاعدة الاستثمار . وفي ٢٣ شباط (فبراير) من عام ١٩٢٤ عقدت اتفاقية بين حكومة دمشق ورئيس بلديتها نصت على كيفية العمل وعلى إدارة المشروع من قبل لجنة مزدوجة . ولقد كان لمعالي لطفي بك الحفار فضل الظفر بامتياز المشروع باسم مدينة دمشق، وقد بذل الكثير في سبيل تحقيق المشروع سنين طويلة ثم قام بالاشراف على أعماله بهمة عالية وإخلاص .

وفي الخامس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٢٥ عُرض المشروع للالتزام . فتقدمت من مختلف بلاد العالم شركات قديرة من الجهتين المالية والفنية للمناقصة ، بعد دراسة المشروع دراسة فنية ، ثم نالت الالتزام إحدى الشركات الكبرى . وبوشر العمل في أول أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٢٥ .

وقد كان الرأي الأول سحب الماء بواسطة أنابيب جديدية ، كما جرى من قبل . ولما كانت تكاليف الأنابيب الحديدية تقارب النفقات اللازمة لإنشاء قناة في شكل نفق أوثرت الطريقة الثانية لجملة أسباب فنية . أهمها إمكان جلب مقادير كافية من المياه لسد حاجة دمشق وتخفيف نفقات الترميم والاصلاح ، وبذلك تقل نفقات الاستثمار علاوة على أنه يستفاد من حجم قناة النفق لتأسيس شلال للماء . وبعد أن تقرر إنشاء القناة بدئ العمل في آخر عام ١٩٢٥ . وقد بلغ طول القناة المذكورة ثمانية عشر كيلو متراً، لأن القناة طريقها يقرب من الخط المستقيم ، وهي مؤلفة من أربعين نفقاً وثلاث قنوات مبنية بالاسمنت المسلح وأربعة جسور يختلف طولها بين ١٥ و ٥٠ متراً بنيت بالاسمنت المسلح ثم تماص (سيفون) كبير مبني بالاسمنت المسلح طوله أربعمئة متر في وادي قرية دُمَّر التي تبعد عن دمشق سبعة كيلومترات . وعمق الوادي تحت سطح النفق يبلغ أربعين متراً وقد بني المماص (السيفون) في شكل أنبوب بمقطع دائري قطره متر واحد من الداخل .

أما مقادير المياه التي تسيل في هذه القناة فتبلغ ثلاثة آلاف لتر في الثانية . تأخذ المدينة منها خمسمئة لتر، أما الباقي وقدره ألفان وخمسمئة لتر فيُصبُّ في شلال الماء المنشأ أسفل معمل كهربيّ في موقع «العامة» لإضاءة المدينة ، لأن الشلالات القديمة صارت لا تفي بالإنارة

وقد بلغت نفقات الأعمال الإنشائية ٢٧٠ مائتين وسبعين ألف ليرة عثمانية ذهبية. وقد انتهى المشروع في عام ١٩٣٢ ، فأُسيلت المياه في بيوت المدينة .

وأما طريقة التوزيع فهي طريقة لا تشابه الطرق الجارية في سائر المدن العالمية ، لأن المشتركين في دمشق يملكون أمتاراً من الماء ويدفعون قيمتها لأجل تأدين رأس مال المشروع ، وهم يستمتعون بالماء في بيوتهم ويدفعون عنه رسماً سنويًّا في رأس كل سنة لقاء نفقات الترميم والإصلاح والاستثمار . وهذا الرسم السنوي يختلف في كل سنة إذ يزيد أو ينقص بنسبة النفقات السنوية الضرورية والاستثمار ، وبنسبة نصف المتر أو متر الماء الذي يكون قد اشترك فيه المشترك وسحبه إلى داره . وتوزّع المياه المشترَك فيها بطريق الخرسة حصراً لمقادير الماء المسحوبة . وبعض أهل دمشق يطلبون الاشتراك بطريق العداد ، وعددهم لا يزيد على ألف مشترك إلى الآن . ويبلغ مجموع المشتركين ٣٠٠٠ مشترك ، منهم المقيمون بالمناطق العسكرية، واشتراك هؤلاء نحو ٥٧٥٠ متراً مكعباً . ولم يدفع الأهلون حتى عام ١٩٤١ من مجموع الـ ٢٧٠ الف ليرة عثمانية ، وهي مقدار النفقات ، سوى مبلغ ١٣٠ ألف ليرة ذهبية ، وسُدد الفرق بفضل اللجنة بوساطة قروض عقدت مع الحكومة التي لمست الحاجة إلى إتمام هذا المشروع الحيوي للمدينة والذي ينفذ بعناية من الوجهة الفنية وبانتظام من الوجهة الادارية . وقد وفقت اللجنة لإلغاء جميع الفوائد التي نصت عليها عقود الدين مع الحكومة ودفع القسم الكبير من الدين أو قيمة القروض التي اقترضتها اللجنة من الحكومة لقاء ضمانات كبيرة . ثم قُسِّطت بقية هذا الدين على مدد محددة ينتهي جميع الدين بانتهائها .

ثم أُنشئت دار للمصلحة في أشرف بقعة من المدينة ، وهي آية من آيات الطراز الحديث في صورته العربية من حيث البناء والنقش والزخرفة والأثاث ، ولا يكاد يماثلها بناء في جميع الشرق العربي . وأما الذي أبلغها هذه الروعة الفنية السليمة فهو المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان ، فقد قام بمعاونة أولاده بصناعة هذه التحفة فيام الحاذق العارف بدقائق الفنّ العربي السليم .

كانت والعقل الجرماني الحديث

نقله باختصار وتصرف عبد الكريم الخمور

عن مقال بالانجليزية للاستاذ ياسبرس

لقد مشت عشر سنوات مع فلسفة «كانت» Kant . وظلت في نفس الوقت بيتي وسجني ، تنفستها كتنفسي الهواء ، وإني أشك في أن أحداً لا يعمل عملي هذا يستطيع أن يفهم عصرنا وما فيه من رذائل وفضائل . فلتكن عبقرية كانت التي أظهرت في ما اوحت إليه حياة الغرب القلقة في قالب ميكانيكي ثم قوتها وراء هذه الثالية الميكانيكية التي كيفت التاريخ الأوربي منذ عصر النهضة .

على أن تكون «كانتيا» مخلصاً مدة طويلة هو من الافتراضات الواجبة ، فذلك يمهد السبيل إلى انقطاعك عن فلسفة كانت ، إذ لا خلاص من سيطرة كانت الفلسفية إلا بالخضوع لها زمناً. هذا ، وإذا أردنا أن نبني روحاً جديدة في عالم الفكر العالمي الحديث ، فلابد لنا من أن نعيش مع كانت ما دام هو الحجر الأساسي في بناء الفكر العالمي الحديث وما دامت الفلسفات الحديثة تأخذه بعين الاعتبار عند ما تبحث مشكلاتها الأساسية .

منذ أكثر من قرن ظهرت فلسفة كانت في مكان معين من التاريخ الأوربي ، وذلك حين تنفس عهد «الركوكو» النفس الأخير وانبجر العصر الرومانتيكي . هذه الساعة البهيجة الجليلة يمكنني ان القبها بكل شجاعة : الذروة العليا في التاريخ الأوربي .

لا يسأل كانت ما هي الحقيقة وما هي الأشياء وما هذا العمل؟ بل يسأل عن إمكان معرفة الأشياء والعمل . لقد ضرب كانت بالأشياء عرض الحائط والطوى على نفسه هذا الانطواء العميق الذي لم يكن جديداً في عصر كانت ، بل كان من خصائص عصر النهضة على العموم . وما كانت في الواقع إلا الفيلسوف الذي أبلس هذا الاهمال للاشياء صورته النهائية . وبهذا نرى كانت يهمل المشكلة «المتافيزقية» للوجود وينصرف جهده إلى مشكلة المعرفة . فهو لم يهتم بكونه يعرف ، ولكنه اهتم بكونه : هل يعرف . وبكلمة أخرى ، انصرف كانت إلى إمكان المعرفة .

***

وإذا نظرنا إلى الفلسفة المعاصرة نراها تجعل من الفلسفة ابتداء من «كانت» علماً

للمعرفة ، فهي تصرّح بأنهُ قبل أن نعرف أي شيء ، علينا أن نتثبت أولاً من إمكان المعرفة ، وهذا الأسلوب الجديد في الفلسفة لم يقتصر على إدخال الشك في عقل الرجل العصري حسب ، بل منذ ديكارت Descartes لم تألُ جهداً في اعتبار الأمر الطبيعي والمعقول لدى الفلسفة أن تبدأ في توضيح طريق المعرفة المؤدية إلى الحقيقة .

وهنالك زمان لم يكن فيه شعور الفيلسوف مماثلاً لشعور فيلسوفنا الحديث ، فلسفة اليونان وفلسفة القرون الوسطى لم تكن علماً للمعرفة بل علماً للوجود . وان علم المعرفة كان بالنسبة إليهم أمراً ثانويّاً ، ولهذا نرى أن هذه النزعة في الروح المعاصرة التي تحفزنا إلى السؤال عن إمكان وجود حقيقة وعن طريق معرفتها غريبة عن عقلية اليونان والقرون الوسطى .

إن أفلاطون والقديس أغسطينس قريبان من الروح المعاصرة ولكنهما لا يشكان أبداً في إمكان معرفة الحقيقة . والواقع أن أفلاطون اطمأن بقوة العقل كل الاطمئنان حتى إنه تعجب كثيراً من جواز وقوع الخطأ .

وهنا لابد أن معترضاً يقول بأن أفلاطون قد كرّر كثيراً اثارة مشكلة المعرفة مستعملاً نفس الالفاظ التي استعملها الفلاسفة المحدثون . ولكن هذه الاثارة والتكرار فيها شيء ظاهري لا يفيد إلاّ البعد بين تفكيره وتفكيرنا الحديث . فديكارت وهيوم Hume وكانت يسألون : هل لدينا معرفة صحيحة بشيء ما ، ولكن أفلاطون لا يشك ولو لحظة واحدة في قدرتنا على معرفة أشياء كثيرة ، وهو وإن أنكر معرفة الأشياء الجزئية لم يشك مطلقاً في معرفة الكليات أو الفكر كالعدالة والحب ، وبكلمة أخرى : يثير أفلاطون مشكلة المعرفة لا لأنهُ يعتقد مقدماً أن العقل البشري قاصر عن المعرفة ولكن ليتثبت هل هناك موضوعات للمعرفة اليقينية .

* ***

هذه الملاحظات مع ما فيها من التشابه الظاهري هي في الواقع الحد الفاصل بين الروح اليونانية والقرون الوسطى من جهة ، والروح الحديثة من جهة أخرى . وهذا الفاصل قد خلق بدوره نظريتين مختلفتين للحياة . فبدأ القدماء من الشعور بالثقة في هذا العالم ونظامه ولكن الرجل العصري يبدأ بعدم الثقة في هذا العالم ، ويعبر كانت عن هذا بقوله « إن العالم في تشويش وسوء انتظام » . على أنهُ لمن الخطأ أن نذكر كسابق لهذه النزعة العصرية نزعة الشكيين عند اليونان ، ونحن وإن كنّا لا ننكر أن التفكير الحديث قد تعلّم من اليونان

المفكرين كثيراً واستعمل أسلحتهم مراراً لنرى أن هناك فرقاً أساسيًّا بين عصر الشك الكلاسيكي وعصر الفلسفة النقدية الحديثة . فالمفكرون عند اليونان لم يبتدئوا بالشك بل توصلوا إليه، على حين الفكر الحديث يبتدئ بالشك .

ليس الشك بالأمر المهم كما يقول « كانت » وذلك لأن أول شاك كبير عصري ، وهو ديكارت ، قد توصل إلى حقيقة ذاتية بعد أن تساءل عن فكرة القدماء عن الحقيقة ، ولهذا فكل الجدل حول الشك في العصر اليوناني أصبح لا يجدي شيئاً بعد أن توصلنا إلى حقيقة ذاتية، ولكن ذلك لا يمنعنا القول بأن روح الشك في العصر اليوناني قريبة إلى حدّ ما من روح العصر الحاضر . ولهذا السبب نجد روح عصر الشك عند اليونان يقف موقفاً مضاداً للروح العامة، حتى إن اليونان لخوفهم من هذه الفئة لقبوها بالوساوسة .

وليس أدل على معنى هذا الخوف الذي يعتري اليونان من هذه الفئة من كلمة « الشك ». فكلمة الشك عند اليونان معناها « الازدواج » ولكن اليونان يكرهون هذا الازدواج ويميلون إلى الوحدة .

إن الشك الذي كان من البطولة الوصولُ إليه أصبح ظاهرة طبيعية لدى الروح الحديثة «فكانت» الذي يمثل هذه الظاهرة بأجمعها لم يكتف باتخاذ الحذر طريقة فلسفية، بل جعل من الفلسفة علماً له . ولهذا فإن الفلسفة النقدية الحديثة ليست إلاّ العلم الذي لا يهتم بأن يعرف بل يهتم بأن يتجنب الخطأ . فالفلسفة القديمة — فلسفة اليونان والقرون الوسطى — هي ثمرة الثقة والشعور بالاطمئنان ، ولهذا نرى أن مجتمعها يتجمد في الفارس المغامر في حروبه، بعكس الفلسفة الحديثة التي أنتجها عدم الثقة والحذر والتي هي من خلق رجل الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي . إن رجل الطبقة الوسطى هذا قد تغلب على المغامر وعلى الروح الحربية القديمة وجعل من نفسه نموذجاً لمجتمعه . ولكنهُ بفقدان هذه الروح المحاربة وبسبب حذره اضطرّ إلى السعي وراء الطمأنينة بالتشريع والاقتصاد وسيلةً لتجنب ما يحلو ويخافه .

وليست فلسفة كانت النقدية إلاّ صورة لروح الطبقة الوسطى التي تحكمت في مصير أوربة منذ عصر النهضة، والتي سارت في تطورها جنباً إلى جنب مع تطور الرأسمالية . ولهذا نرى أن تشبع كانت بالفلسفة الانكليزية التي كانت تمثل الصورة المثلى لتطور الفلسفة النقدية والرأسمالية في إنكلترة ليس من قبيل المصادفة . على أن ذلك لا يعني أن هذه الملاحظات التي أبديتها تفيد الاعتقاد « بمذهب المادية التاريخية » . أنا لا أقول إن الفلسفة النقدية هي

من نتائج النظام الرأسمالي الحديث ولكني أقول إن الفلسفة النقدية والرأسمالية هما من خلق هذا الإنسان الذي يحركه الحذر والشك . إن أية قيمة تقيمها لأي عمل ثقافي يجب أن تسبق بفحص الظاهرة « البيولوجية » أعني نوع الشخص الذي أنتج العمل .

***

على أن هذه الملاحظات على ما فيها من التعدد لها قيمتها في معرفتنا لأنفسنا . فلأي نوع ينتمي رجلنا المعاصر ، هل هو متسم بحذر رجل الطبقة الوسطى ؟ الجواب عن ذلك يتطلب تحليل الفلسفة المعاصرة ، وهو عمل يعجزنا ما دامت الفلسفة المعاصرة لا تزال في طور النمو ولم تكتمل بعد . إلا أن هناك ملاحظة في وسعنا الإشارة إليها دون أن نتحمل خطر التبعة ، أعني أن الفلسفة المعاصرة تعتقد أن الهلك ليس بالطريق الصالح وأن الرجل الحذر في تفكيره في استطاعته التخلص من ذكائه او براءته . إن الانسان لا يستطيع أن يتوصل إلى طريق المعرفة قبل معرفة الحقيقة ، لأن المعرفة تتضمن معرفة طريق الحقيقة ، وبعبارة أخرى : إن الثقة أصلح من الحذر أو الهلك .

ليس الحذر وحده الذي يميز فلسفة كانت . فديكارت وهيوم كانا حذرين ، ومع ذلك تختلف فلسفتهما كل الاختلاف عن فلسفة « كانت » ، وإن هذا الاختلاف ناتج من الطريقة التي بها هدأوا حذرهم وشكهم والاعتقادات التي نتجت عن هذه التهدئة ، لهذا نرى الروح الجرمانية وروح حوض البحر المتوسط تختلفان أكثر مما نعتقد ، لأن هاتين الروحين تبتدئان من تجارب متناقضة كل التناقض . فساعة تفيق الروح الجرمانية لا ترى في هذا العالم إلا نفسها : الفرد منطو على نفسه وليس له أي علاقة بفرد آخر . وإن روح الفرد الجرماني لا تشعر إلا بنفسها ، وإن شعرت بالمجتمع الذي حولها فلا تشعر به إلا كنظام أعمى أو كوحش يلتهم شاطىء جزيرتها .

على أن فرد حوض البحر المتوسط يفيق وهو في سوق البيع ، وهو منذ الولادة رجل الساعات . وأول مؤثر فيه هو الحياة الاجتماعية ، فتجاربه في « أنت ، هي ، الشعب ، الأشجار ، النجوم » تسبق معرفته لنفسه . إن الشعور بالوحدة أجنبي عنه ، وإذا أراده وجب عليه أن يخلقه ويحاربه من أجله ، وإن حصل عليه فلا يكون ذلك إلا من قبيل الصناعة والتمثيل . إن روح حوض البحر المتوسط في بنائها فلسفتها تعتمد على العالم الخارجي وتعتبر الأشياء الحسية صورة الحقيقة ، ولهذا هي زاهدة في قيمة وجودها بالنسبة إلى المرآة التي تتنزل بها الأشياء والناس . إن هذه الروح لا تعي إلا سطحية « الأنانة »[1] حيث الأشياء تترك

(١) فرنك : أنا (المترجم)

طابعها ، وذلك بعكس الروح الجرمانية التي تستدبر العالم الخارجي وتنطوي على وليجة نفسها . فالجرماني لا يرى العالم مباشرة بل يراه من طريق تفكيره وإحساسه ، وبهذا يصبح عالمه عالم فكرة أو صورة وما منه إلا كمثل رجل يريد أن يرى الطبيعة فيذهب إلى شجرة ويراها منعكسة في شعاعات سائلية .

إن حقيقة وعي الأنانة صورة لرجل جوض البحر المتوسط ، وليس الشعور بها عند الجرماني إلا مرضاً في العقل . فالوعي لا يكون موجوداً إلا إذا كان وعياً بشيء . ولهذا نرى في النظام الطبيعي أسبقية العالم الخارجي على الوعي . إن وعيك كموضوع لوعيك شيء ثانوي ويتطلب العالم الخارجي ، وهذا عكس ما يفكر فيه الجرماني . فالأشياء الحسية عند الجرماني أمر ثانوي بالإضافة الى الوعي الداخلي . وهنا يمثل كانت أوج الذاتية في الروح الجرمانية التي تقود الفرد إلى الاعتقاد بأن « الأنانة » هي الحقيقة الأولى في هذا الوجود . وهكذا فإن كل محاولة من جانب الجرماني في الوصول إلى ما بعد الذات خاسرة ، ولا يكون الاتصال مباشراً بل صناعيًّا مكوناً قبليًّا في الذهن apriori .

أما رجل الجنوب فشاعر منذ البداية بالعالم الخارجي ومقضي عليه بالعيش في جلبة أسواق العالم ، وليس له من سبيل إلى الانفراد بنفسه . فمشكلته تنحصر في كيفية الغوص في نفسه وتهشيم حقيقة الأنانه . وإن وصل إلى حقيقة نفسه فما يكون ذلك إلا بعد أن يختبر الأشياء في « أنت » ثم يرجع بها إلى « أنا » ، لهذا فهو أميل إلى تفسير « أنا » من الخارج على الصورة التي اختبر بها الناس والأشياء . وليس ذلك بالغريب لأن فلسفة البحر المتوسط تركب الأنانة على الصورة التي تركب بها الجسم ، وذلك باستثناء فلسفة القديس أغسطيس التي تعرف الأنانة على الصورة التي يعرفها فلاسفة العصر الحديث .

على أن هذا الاختلاف بين تلك الروحين أدى إلى صراع عنيف بين رهبان الشمال ورهبان الجنوب في أوربة . فهوجو وسكوتس وأوكام من أهل الشمال شغلوا أنفسهم بالحياة الداخلية على حين أن القديس توما الاقويني — الايطالي الصميم — أحيا فكرة الجسم الروحي الارسطالية التي يتكون نصفها من المادة والتي ليست لها سلطة على التفكير فحسب بل على نمو الجسم أيضاً . ومن هنا نرى أن التفكير لم يكن ليفهم من الداخل كما هو عند الجرماني ، بل اعتبر حقيقة داخلة في نظام حركات الأجسام .

« شرق الاردن »

منشأ الدولة الأتابكية

لتامر الفتلاوي

من أعضاء مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق

يبدو للمتأمل في مجرى التاريخ أن الدول الحاكمة ينشأ بعضها عن بعض في تسلسل منظم، فلا يكاد يضعف أمر أمة بعد العزة والمنعة والقوة، وتدب اليها عوامل الانحلال والتفوضي، حتى يستيقظ فيها عنصر جديد فتي يتسلم الحكم فيها، أو يغزوها حاكم أجنبي قوي يستولي عليها. هذا هو شأن الأمم والممالك في الشرق والغرب. انقضى عهد الخلفاء الراشدين، فتلاه عهد الأمويين ثم أعقبهم العباسيون ثم . . . ثم . . . ثم تلاهم بنو بويه فبنو سلجوق، فالأتابكيون، فالأيوبيون ...

كانت الدولة السلجوقية [1] على جانب عظيم من القوة ومنعة الجانب وسعة السلطان، عمّ نفوذها خراسان والري وكرمان وبلاد الروم وامتد إلى العراق وسورية، وتعاقب عليها ملوك ذوو طموح وهمة وحزم، وبدوا بدعائهم وحسن سياستهم هذا الملك الشاسع وحفظوه من طمع الطامعين وكيد الخائنين، ولكن لم يكد ينقضي القرن الخامس الهجري حتى مال نجمها إلى الأفول منذ قضى عاهلها العظيم ملكشاه، فتفككت عراها وانحلت أواصرها وتقوضت دعائمها، فاستقل الأميران سليمان وتاج الدولة تتش بملكتيهما — الأول في آسية الصغرى والآخر في بلاد الشام — استقلالاً تامًّا، وحاولا لم يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية، وتبعهما في هذا الاستقلال من الدولة الأمراء الآخرون الذين لم يجسروا على ذلك إلاّ بعد موت ملكشاه وانقسام الملك، وكلاهما من ذوي العبقرية الفذة والشخصية القوية، فأتيح بموتهما عظمة الدولة السلجوقية وانهيار بناؤها الشامخ المتين.

كان لملكشاه هذا مملوك [2] تركي يدعى آق سنقر بن عبد الله [3] تزوج خاصة السلطان إدريس بن طغان شاه، وحظي بثقة ملكشاه فأصبح من أمرائه وصار من المقربين إليه ومن خواصّه، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته، وزاد قدره علوًّا إلى أن صار يتّقيه مثل

(١) دامت الدولة السلجوقية الكبرى التي أسسها طغرل بك ٩٣ عاماً (٤٢٩ — ٥٢٢ هـ) ودامت الدولة السلجوقية في سورية — وهي التي نشأت منها الدولة الأتابكية — ٢٤ عاماً (٤٨٧ — ٥١١ هـ).

(٢) وقيل إنه لصيق له لا مملوك أي من أصحابه وأترابه ومن ربي معه في صغره. (٣) وقيل إن اسم أبيه آل تركان من قبيلة سلاجقة

نظام الملك، مع تحكمه في السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يداً بذلك ، فأقطعه السلطان جميع ذلك . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقيه بقسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلاّ لمستحقيها[1].

ولما قدم ملكشاه حلب في رمضان ٤٧٩ هـ قاصداً أخاه تاج الدولة تتش ، قدم معهُ آق سنقر وانهزم تتش ، وبعد انقضاء عيد الفطر رحل ملكشاه عنها وقرر ولايتها لآق سنقر هذا في مستهلّ عام ٤٨٠ ولقّبه قسيم الدولة فبقي فيها والياً إلى أن توفي وليّ نعمته ملكشاه ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة .

وأجمع المؤرخون على أن آق سنقر كان حسن السيرة إداريًّا حازماً ، ساد في أيامه العدل والإنصاف . وانتشر الأمن في أرجاء حلب وعمّ الرخاء . كان قطاع الطرق منتشرين في البلدة يزعجون الناس ويثيرون مخاوفهم ، فتتبعهم وتتبّع اللصوص في كل مكان حتى استطاع أن يستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله فأمنت الطرق بعد خوفها وسلكت السبل بعد انقطاعها ، فشكر له الناس ذلك ، وبلغ به الاهتمام أن وضع نظاماً يقضي بأنه إذا وقعت حادثة سرقة في إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها[2] .

قال ابن الأثير الجزري : « كان قسيم الدولة آق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قتيل أو غيره غرّم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق وتحدّث الركبان بحسن سيرته » .

وشنق من قطّاع الطرق خلقاً ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكان ذا هيبة عظيمة . وقرّب الحلبيّين وأحبّهم الحب المفرط وأحبوه أضعاف ذلك ، وأقام الحدود وأحيا أحكام الإسلام ، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب بالرفق وقدّم اليهم من الجميل ما أحوجهم أن يترادفوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر[3].

وبلغت السياسة المالية في عهده مبلغاً استغلّت به حلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة

(١) الروضتين ٢٤ (٢) وقد أخذ بهذه النظرية بعض الأمم الحديثة .
(٣) الروضتين ٤ عن خط أبي عبد الله محمد بن علي الطليسي .

دينار[1]. أما الناحية العمرانية فإن مدينة حلب قد عمرت في أيامه بعد الأمن الذي ساد أرجاءها، إذ كثر ورود التجار عليها فقويت حركة التعامل وانتعشت الأسواق، وتقاطر الناس إليها للمقام بها بعد ما عرف من حسن سيرته وعدله، وجددت في عهده منارة حلب بالجامع عام ٤٨٦ ونقش اسمه عليها، وأمر ببناء مشهد قرنبيا، لمنام رآه بعض أهل زمانه، ووقف عليه الوقف.

هذا وكان السلطان ملكشاه يفكر قبيل وفاته في القيام بمشروعات كبيرة، منها إخضاع الخليفة الفاطمي في مصر، فأمر لهذه الغاية آق سنقر وبوزان عامل الرها أن يلتقيا بجندهما مع تتش الذي تولى قيادة الجيش، ولكنهم ما وصلوا إلى طرابلس حتى اختلفوا فيما بينهم. ويقال إن ابن عمار والي هذه المدينة رشا آق سنقر ووزيره زرين كر، ومهما يكن من شيء فقد عاد آق سنقر ادراجه فاضطر تتش إلى التخلي عن هذه الحملة، وبعد قليل توفي ملكشاه فانتهز تتش الفرصة للوصول إلى السلطنة.

ولهذا سار مسرعاً إلى حلب، وبالرغم من كراهية آق سنقر لتتش، لم ير من الحكمة أن يقف في سبيله فتبعه مرغماً وحذا بوزان حذوه. وبعد أن سارت جنودهم مسافة طويلة وكانت الحرب وشيكة الوقوع بينهم وبين بركيارق الوارث الشرعي للملكشاه لم يكن من آق سنقر وبوزان إلاَّ أن تخليا عن تتش وانضما إلى بركيارق فأجبر تتش على الارتداد إلى الشام، ولكنه مع هذا ظلَّ متشبثاً بأطماعه في السلطنة.

كانت كراهية آق سنقر الباطنة لتتش تبدو في بعض الأحوال بشكل واضح، من ذلك أن تاج الدولة تتش نزل مرة إلى السلطان ملكشاه، فلما رآه ترجل له — وكان في العيد — خيفة أن يسيء به الظن، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته، فقال تتش: كان من الأمر كذا وكذا، فقال له قسيم الدولة: تكذب. فقال له السلطان: تقول لأخي كذا؟ قال: نعم، يطلع الله في عليه ما يريده لك ويطلع في عيني ما أريده لك، فأسرها تتش في نفسه وأضمر السوء له.

ولما توفي السلطان ملكشاه كان تتش في دمشق، فأراد العبور مختفياً ليمضي إلى خراسان ويرث ملك أخيه، وخرج في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧ ومعه خلق من العرب وقطع عاصي ودعى عسكره الزرع ونهب المواشي وغيرها، واتصل الخبر بآق سنقر وهو بحلب فنهض إليه وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب، فجمع وحشد واستنجد بمن يجاوره فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ويوسف بن أبق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمئة فارس منجدين قسيم الدولة، وحصل الجمع بحلب، واستدعى آق سنقر منجماً ليأخذ

(١) كتاب عنوان السير وكتاب شذرات الذهب

له الطالع فحضر عنده واختار له وقتاً وقال : تخرج الساعة فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كبيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل وكان أطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زايدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنهُ قدر عسكره بعشرين ألف فارس وقيل كان يزيد على ستة آلاف، وقصد تاج الدولة في ٩ جمادى الأولى . وتقول إحدى الروايات إن قسيم الدولة خرج إليه وقال لأصحابه : إلحقوني بكتاف الأسرى ـ استصغاراً لخصمه ـ فقال له سكمان بن أرتق : حركتهم ؟ ـ أي ، أرأيتهم ؟ ـ ولم يتمهل إلى حين تصل خيله لفضى واستعجل .

قطع آق سنقر سواقي نهر سبعين [1] قاصداً تتش ، وكان تتش قد وصل إلى الخانوتة ورحل منها إلى الناعورة وأغارت خيله على المواشي بالنقرة وأحرقوا بعض زرعها ورحل من الناعورة قاصداً الوادي وادي بزاعا ، وحصلت الواقعة عند قرية سبعين أو بكارس [2] وكان أول من برز للحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب خوفاً من قائديه اللذين أخرجهما من السجن ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً ، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وجوزان معهم إلى حلب ووقع فيهم القتل وثبت قسيم الدولة فأسر وأكثر أصحابه ، ورحل تتش من موضع المعركة إلى حلب فملكها واستولى على المواضع التي كانت لقسيم وجلس في قلعة حلب وشرب فيها وأحضر قسيم الدولة .

وقتل آق سنقر بين يدي تتش في سبعين أو بكارس وقال له تتش قبل قتله : لو ظفرت بي ما كنت صانعاً بي ؟ قال : أقتلك . قال : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم عليّ ، وقتله صبراً ، وقطع رأسه وطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قَرْنَبيا وهي هضبة تقع قرب حلب ، وقيل إن آق سنقر قتل بقرية بكارس قرب حلب . ولما ولي ابنه عماد الدين زنكي — أبو نور الدين — نقله إلى مدرسة كان قد ابتدئ بعمارتها ولم تتم ووقف عليها ضيعتين هما شاش وكارس يساوي مغلهما ألف دينار كل سنة وعمر بها عمارة معجزة ونقل رمته إليها ، وجعل قبره قبالة المسجد من الشمال وأجرى إليها قناة ماء وغرس وسطها وجعل القبر مثل قبر أبي حنيفة رضي الله عنه .

وكان قتل آق سنقر يوم السبت ٩ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ وقتل معه أربعة عشر مقدماً. [3]

« دمشق »

(١) قرية من قرى حلب من نقرة بني أسد على نهر الذهب (٢) وفي رواية : في أرض تل رمي قرية قريبة من إعزاز وضواحي حلب . وفي دائرة المعارف الاسلامية : عند قرية ريان . وهو خطأ

(٣) المصادر : الروضتين ، وشذرات الذهب ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن الاثير ، وعنوان السير وغيرها .

التمثيل الخارجي*

للدكتور نجيب الأرمنازي

هذه خمسة وعشرون عاماً والبلاد السورية تجد وتدأب في سبيل إدراك استقلالها وتحقيق وسائله ، فأجرت في سبيل هذه الغاية محاولات جمة ، وكانت تجدد المساعي في كل بضعة أعوام حتى دخلت البلاد في وضع سياسي أصبحنا نتطلع فيه إلى المستقبل بثقة تزداد مع الزمن ، ونحن نتوقع أن نستوحي من عبر الماضي وعظاته ما يكون عوناً لنا في تسديد خطواتنا ، ودليلاً ومرشداً في معالجة ما نحن مدعوون إلى معالجته من أمورنا .

والاستقلال الذي هو مظهر سلطان الأمة وحريتها إنما يتجلى في سيطرتها على أمورها الداخلية وأمورها الخارجية ، والتمثيل الخارجي أو السلك السياسي جزء من هذا السلطان . وسنبدأ في البحث بالأوصاف والمميزات التي يجب أن يتحلى بها رجال السياسة ، ثم نبحث عن رجال السلك السياسي وما يقومون به من الأعمال ، ونورد بعد ذلك بعض ما جاء في كتب العرب من الآراء في شأن السفراء والرسل والعيون والجواسيس ونشر الأخبار ، فتشاهد هذا التشابه العجيب في الآراء التي يأتي بها الفكر الإنساني في أجياله المختلفة لحل المعضلات المتشابهة التي تعرض عليه . والأمم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، والتشابه عظيم بين القواعد التي أخرجت للناس ، وميراث الفكر والعقل عام مشترك بين الجميع .

١ — أوصاف رجال السياسة ومميزاتهم

قد لا تكون صناعة أكثر تنوعاً واختلافاً من السياسة في معناها الدبلوماسي لأنها مرتبطة بجميع المشكلات التي يعالجها العالم ، ولذلك كانت وظيفة السياسي دقيقة غامضة تحتاج إلى خبرة نادرة وتجربة شاملة وفراسة بعيدة وفكرة سديدة وقدرة على العمل وصيانة للأسرار ، فينبغي لمن يتعاطى السياسة أن يكون متمكناً من نفسه مسيطراً على هواه لا يستفزه حال إلى البوح بما لم يكن قد صحّ رأيه على أن يبوح به ، وعليه أن يكتم ما يعرض في خاطره ، فلا ينطق بكل ما فكر فيه ، ولكن يفكر في كل ما ينطق به ، وليس الصمت في

---

* من كتاب المؤلف تحت الطبع

معرض البيان بحزم، ولكن الحزم أن يحسن المرء القول حيث ينبغي أن يكون . وليست قلة الكلام من شروط السياسة وقواعدها، فإن كثيراً من ساسة الباذخين عرفوا برقة الحاشية وحلاوة المحضر وحسن الحديث وطلاوة النكتة . وكان (تليران) نزر الكلام في المجامع ولكنه متبذل في مجالس ثقاته ، وكان (مترنيخ) أحسن الناس حديثاً وأكثرهم نادرة ، وكان اللورد (لينون) أحد مشاهير السفراء البريطانيين في أوائل الجمهورية الثالثة في باريس موصوفاً بفصاحة الأسلوب وسلاسة الكلام وخصب البيان ، ولكن هذه المزايا لم تمنعه أن يكون شديد الكتمان لا يفتح شفتيه عن كلمة لا يريد أن يقولها ، وقلما وجد رجل مثله يجمع مختلف المواهب العظيمة التي يتم بعضها عمل بعض . وقد كتبت جريدة التيمس حين مات هذا السياسي قالت : كان يجمع بين التفكير والثقافة وبين صفات الرجل السياسي الدائب المتبصر وبين الرقة والعذوبة والفن والأدب .

والدبلوماسي في عالم السياسة يحتاج إلى لين في الجانب ورقة في الحاشية وملاءمة في الطباع، وبذلك يستطيع السياسي أن يستطلع خفايا القلوب ؛ ثم لا بد له من أن يستمد من أعماق نفسه نبل العواطف ومكارم الأخلاق وصحة العزيمة وقوة الإرادة . فإذا اقتضت منافع بلاده أن يدافع عنها دافع بكل صلابة وشدة وثبات على الرأي الذي أنضجته الفكرة وهذبته التجارب، ولا شيء يودي بمصالح الأمم مثل التردد والتواني . كما أن من أشرف الخصال التي يسمو بها الساسة المضاء في الأمور والوقوف عند الرأي الذي قطع به ومسايرته إلى أن ينفذ ويبلغ أجله ، وقد كان الكردينال (ريشليو) واسع الحيلة بعيد النظر ولكنه متردد عندما يصير الأمر إلى الغاية القصوى ولا يبقى سوى إنفاذه ، ففي هذه الساعة الأخيرة كان يسرع إليه الأب (جوزيف) مستشاره فيعيد برأيه وحزمه .

وكذلك يجب على السياسي أن يكون حسن النظام في جميع أعماله وأطواره ، بعيداً عن التقائس والمتالب ، خالصاً من شوائب التخبط والاضطراب ، وماذا ترتجي المنافع العامة من رجل أخلى شؤونه الخاصة من كل تدبير ونظام أو أفرط في اللهو واللعب والتهالك . فانه لا يستحق أن يدخل في عداد الساسة أولئك الذين تحكمهم أهواؤهم ولا يحكمونها وتستعبدهم نفوسهم ولا يستبدون بها ، على أنه لا يكفي الرجل الذي يجدر به أن يمثل أمة أن يكون معروفاً بالعفة والنزاهة موصوفاً بالذكاء والفطنة ؛ بل حسبه فوق ذلك أن يكون على جانب غير يسير من الاطلاع والمعرفة ، راسخ القدم في تدبير المصالح السياسية ، يغشى مجالس العظماء فيستفيد منها جليل الفوائد وتعقد بينه وبين رجالها روابط المودة . فالفوز في كثير من الأحاديث الخطيرة يرجع في الغالب إلى قيمة المحدث وما له من شأن ، وقد يكون هذا

الشرط كما قال (براديه فوديره) ، مشيطاً لهم فريق من الناس الذين تحسو بهم الانقلابات إلى المنازل التي لم يكونوا أهلاً لها .

وقد وصف (سان سيمون) أحد رجال السياسة في القرن السابع عشر (أرنولدري ومبون) بقوله : كان رجلاً منفرداً بشعور الحق والعدل ولين الجانب ودماثة الخلق ، يزن كل شيء ويصنعه بنضج دون بطء ، ويمتاز بمعالجة الأمور بفن وبراعة ودقة ومرونة ، فيصل إلى أغراضه بلا حيلة ولا استفزاز ، وهو على رقته وصبره لا يقصر في حزم ولا يغمز بنقص ولا يتوانى في الدفاع عن مصلحة الدولة وعظمة المملكة ، وعلى هذه الصفات التي عرف بها امتال جميع الذين فاوضوه في مختلف البلاد ، فكان موضع التقدير والثقة مهذباً محسناً ، لم يأتِ وزير مثله في حياة متشابهة منسجمة ، بعيدة من البذخ والترف ، لا يدع عمله العظيم إلا لأسرته وأصدقائه وكتبه ، وعلاقاته العذبة تشهي النفوس وتسحرها ، وأحاديثه من غير أن يريد وأن يتكلف ، لا تنتهي فائدتها لسامعيه .

وصوّر الكاتب الفرنسي (لابرويير) رجل الدولة الذي يخلع عنه رداء الوراك ولباس الحاشية بسطور بليغة تنطبق على أوصاف رجال السياسة في كل مكان فقال : الوزير أو الوزير المفوض هو كالحرباء في تلونه ، فلا يغير أساريره وجهه إلا عمداً ، ويستشير في أعماله الزمان والمكان ويتحين الفرص ، ويتعرّف ما لديه من قوة أو ضعف ، ويترقب أحوال الشعوب التي يعاملها ويتأمل طبائعها وأمزجة رجالها الذين يفاوضونهم أو الذين يخلفونهم ، وكل آرائه وكل قواعده ونظراته وكل تدقيقاته السياسية وكل محاولاته إنما ترمي إلى غاية واحدة هي أن لا يكون قد خدع وأن يتمكن من خديعة سواه . ومن أعظم وسائل النجاح أن يعرف كيف يقول الحقيقة ، وهو فن يجب أن يبلغ الغاية من الإحاطة ، فعليه أن يكون بعيد الغور شديد الإبهام عند ما يريد إخفاء حقيقة يذكرها لأنه يهمه أن يذكرها وأن لا يصدق فيما قاله عنها ، ويتظاهر بأنه صريح صادق حتى يستطيع أن يخفي ما لا تجوز معرفته ، ويقنع مخاطبه بأنه قد أطلعه على ما يريد الاطلاع عليه ولم يكتم شيئاً في نفسه ، وهو كذلك يؤازر حلفاءه إذا وجد في ذلك ما يعينه على تحقيق أغراضه ، ويؤازر أيضاً الضعفاء ويؤلف بينهم لمقاومة الأقوياء والاحتفاظ بالتوازن بين القوى المختلفة . ويكون أيضاً لطيف العشرة ، ظاهر التمسك بقواعد الشرف بعيد الأثر في إدراك شؤون الحياة وإتقان تصاريف الكلام ووجوهه ، مقتدراً على الإتيان بالحجج الشريفة ، مكيناً في معرفة ما يوافق الزمان ويناسبه ، لا يتكلم إلا عن السلم وعن المحالفات وعن الطمأنينة العامة والخير العام ، ولكنه في الحقيقة

لا يفكر إلا في منافع سيده أو جمهوريته، وهو لا يخدع بما يقول ولا يعتقد به ، ويرمي في مساعيه الى الجوهر والغاية ، ويستمد دائماً لبذل الأمور الصغيرة وإهمال مسائل الشرف الموهومة .

وأوصى (الكونت دي بيلوف) ابنه الذي أصبح بعد ذلك (البرنس دي بيلوف) المستشار الالماني بوصية أورد فيها جملة من المزايا التي ينبغي أن يتصف بها رجال السياسة ويحرصوا عليها ، فقال فيما قال :

« الزم الحقيقة كل الحقيقة بدون مراءاة ولا تساهل في كل ما تنقله وترويه ، وإياك أن تحمل من الأنباء ما لا تعتمد على صحته وما يمكن أن تتضح حقيقته ذات يوم ، وإياك أن تقع في الاسفاف ونشر الذرائع والمبالغات والتأخرات الباطلة وتلوين الأشياء بألوان زاهية جداً ، واحذر الافراط في الاستنتاج ، ولتجهد كل الاجتهاد في تحري الحقيقة وأنت تذكر الأرقام ، ولا تقع في الأشياء المخترعة والأساليب المستحدثة ، ولا تصف أمراً بأكثر مما هو على حقيقته إذا تأملته بهدوء وسكينة ، وكن حذراً فيما تقرره من حكم ، ولا تكون فيما ترويه وتخبر عنه ، فقد انقطع عهد النبوات والمعجزات والإخبار بالغيب والكهانة والنجوم ، وكل شيء يمكن حدوثه ولكن لا يمكن عقد الأيمان على شيء لأن التغير والتبدل من الأمور التي لا مفر منها ، ولا تحمل أحداً يقع في مشكلة بسبب تقاريرك ، فإنه لا يتفق مع أصول اللياقة وأسباب الحزم . ولا تكتب شيئاً في ساعة غضبك ... وعليك بالحذر فيما ترسله من برقيات ولكن كن أكثر حذراً عند وضع الأرقام التي يجب إهمال الفكرة كثيراً فيها . وإياك أن تفرط في النقد في تقاريرك فالنقد سهل والعمل صعب . . . وكن هادئ النفس معتدل المزاج رزيناً وقوراً ، ولا يأخذك الجزع في شيء ولكن تعمد الجد في كل شيء، واحرص على السبق وانتبه إلى كل ما حولك ولا تستسلم أبداً إلى عواطف البغض والكره ، ولا تقل كلمة تحدث للحكومة مشكلة إذا لم تكن أذنت بها وزارة الخارجية ، واجعل أسلوبك واضحاً موجزاً لا اضطراب فيه ولا تعقيد ولا إملال » .

٢ — السلك السياسي

أ — وزير الخارجية

يتألف السلك السياسي في سفاراته وبعثاته من رجال شتى سياسيين وعسكريين وبحريين وتجاريين ، ويلحق بهم القناصل والخبراء ، وتوزع في السفارات الأعمال بين مكتب سياسي ومكتب إداري ، ووزير الخارجية هو المرجع الأعلى لرجال هذا السلك وعماله .

وقد أشتدت الحملة في بعض الأحيان على السلك السياسي، ولا سيما بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في المواصلات إذ دعا الناقدون إلى الاستغناء عنه وجعله نظاماً لا يختلف عن النظام القنصلي، واقترح الآخرون تسمية رجال هذا السلك مرسلين، ولكنه برغم التطور الذي حدث وبعد لا يزال عن خاله في علاقات الدول وارتباط بعضها ببعض.

وإن الطابع الذي يطبع به وزير الخارجية سياسة بلاده ينبغي أن يكون صورة حقيقية لنيات الحكومة ومقاصدها. ويجب عليه أن يختار أحسن الأساليب وينفق عليها مع حكومته حتى يبلغ أفضل النهايات في خدمة مصالح الدولة والوطن، ولا يكفي أن يكون عارفاً حق المعرفة بدعاوي دولته وحقوقها وواجباتها وقواها واستعداداتها وما ضمنته لها العهود والعقود، بل عليه كذلك أن يعرف الوسائل المادية والمعنوية للدول التي بينها وبين بلاده روابط وعلاقات.

وفي الحق أن المزايا التي يجب أن يتحلى بها وزير الخارجية كثيرة الاختلاف، والأعمال التي يقوم بها تدل على تمكنه في الفن الدقيق الذي هو سياسة أمة ببراعة وإتقان، ومن الصعب إدخال الصفات المبتغاة تحت حصر وإحصاء، في الأمور الخارجية — كما قال (مارتنس) في كتاب الدليل السياسي — لا يمكن تحديد شيء ولا الإكراه على شيء، وهي تقوم على الطلب والرجاء والمفاوضة، وأقل كلمة في غير محلها قد تؤذي شعباً بأسره، والسعي الخاطئ والحساب الباطل واتخاذ الخطط بحسب الصداقات قد تحط من كرامة الحكومة ومصلحة الدولة.

ووزير الخارجية بوصفه رئيساً للسلك السياسي يستدعي السفير متى أراد، والسفير كذلك أن يطلب المقابلة ويعين طريقة إثارة البحث، وإذا كان ذلك يكلف من الحكومة سبب البحث ظاهر، وكثير من الصفات التي تطلب من وزير الخارجية تطلب كذلك من السفير، كتبادل الثقة واجتناب الدسيسة وحسن التصرف في تمويه الحقيقة وتحاشي الاخبار السيئة وفي الصمت والنظر، وعدم الإفراط في تقدير وجود الدسائس والمكايد، وهدوء الأعصاب حتى في المناقشات الشديدة التي يظهر فيها فضل الرجل الذي يستطيع ضبط نفسه على الرجل الذي لا يستطيع، واجتناب الغضب وكل ضعف إنساني يخرج الرجل عن طوره ويحمله على البوح بمكنون سره، ويجب على السياسي أن يفصل بين شعوره والأمور التي يعالجها مهما تكن العواطف الوطنية التي تملأ قلبه. بل إنه ليقال أيضاً — وإن كان في ذلك إثارة وإغضاب لحماسة الكثيرين — إن أفضل سياسي ليس الذي ينقاد إلى قلبه ولكن الذي ينقاد إلى المنطق الهادئ، ويتساءل هذا يستطيع أن ينال وما هو سبيل الوصول إليه. ولما

كان التمكن من النفس ليس من صفات كل إنسان وطبائعه ، فعلى من يريد أن يكون جديراً بالعمل السياسي أن يسعى لمراقبة نفسه والتغلب عليها، وإذا عزّ عليه إدراك ذلك فلابدّ أن يصير في إتفاق الجهد وبذل العناء حتى يناله مع الزمان ؛ ومن الواجب أيضاً تحليل نفس المخاطب ومعرفة ما يؤثر فيه ، والخطأ في المرمى قد يعقب ضرراً لا يمكن تلافيه ؛ ويجب في الأمور الكبرى الاعتناء بالاستفادة من الفرص السانحة أكثر من الاجتهاد باحداثها، فإن (ريشليو) و (بسمرك) لم يبدعا الفرص ولم يخلقا الظروف التي مهدت السبيل لنجاح خططهما.

ووزير الخارجية الجدير بهذه المهمة الخطيرة يستطيع أن يقود المساعي والمفاوضات نحو الغاية السياسية الموضوعة فيهدي الرجال السياسيين بخططه وآرائه ويراقب أعمالهم حتى لا يخرج أحدهم عن النهج المرسوم ، ويطلعهم على ما يجري من الشؤون التي تؤثر في مصلحة البلاد ويرسل إليهم حيناً بعد حين وصفاً موجزاً للموقف الخارجي حتى يكونوا على بينة من سياسة الحكومة ومقاصدها .

ووزير الخارجية بوصفه مرجع ساسة الدول الأجنبية في بلاده له مهمة مزدوجة ولكنها مرتبطة من ناحيتها ، فهو يعالج الشؤون السياسية في العالم بالمحادثات الشفوية وليس ذلك لأن الحكومات تريد أن تتخلص عند الحاجة من العهود المكتوبة بل لأنها تريد أيضاً اجتناب الوثائق التي يطلع عليها الآخرون ، وقلما تسجل المحادثات السياسية مع وزير الخارجية ، وذلك بعكس العقود والاتفاقات والاعمال الادارية التي تسجل وتودع بطون الصحائف والدفاتر . وعلاقات السفير مع وزير الخارجية ذات أشكال شتى فمنها ما هو رسمي وما هو شبه رسمي وما هو موقت وسري وخاص وما هو لتنفيذ الأوامر والمناقشة في الشؤون الجارية والمسائل الادارية والمفاوضات السياسية والاقتصادية واستطلاع الأنباء والمحافظة على حسن العلاقات ، وهنالك مسعى ومطلب وتصريح وتبليغ واحتجاج . وعلى السفير أن يحافظ على العلاقات الحسنة مع وزير الخارجية ، وان لا يقاطعه مهما تتحرج الحالة بينهما وأن يحسن اغتنام الاجتماعات الأسبوعية أو الاجتماعات الخاصة والعامة لمعرفة ما يريد الاطلاع عليه، إذ لا يستحسن أن يكتب إلى الوزير يسأله رأيه عن حادثة أو ثورة ولكنه يستخرج ذلك في أثناء مجاذبته الحديث ومخاطبته إياه ، وقد قال (تليران) في وزير الخارجية كلمة تنطبق على كل سياسي وهي : « يجب أن يكون عند وزير الخارجية شيء من القطرة والملكة يحذرانه بسرعة ويمنعانه قبل كل محادثة من الوقوع في مشكلة » .

ولا بد في بعض الأحيان من الالتجاء إلى الكناية ، فالاحتجاج مثلاً يكون حينئذ

أكثر تأثيراً ، على أن اختيار هذه الطريقة غير تابع لقاعدة معينة . وقد تفتر العلاقات بين وزير الخارجية وبين السفير فيلجأ حينئذٍ للمكاتبة ، على أن هذه الحالة لا تكون إلا إلى حين ، فإما أن يتلوها استئناف العلاقات وإما انقطاعها . ومن المجمع عليه أن يتفق مع الحكومة على هذا الأمر ، وقد يستلزم الغياب والمرض الكتابة وكذلك السعي الذي يقوم به السفير لدى الوزير وما ينتظر أن يكون من تأثيره عنده فيطلعه عليه أو على بعضه كتابة بعد استئذان الحكومة في الغالب ، وذلك أملاً في أن يكون أكثر استعداداً للتفاهم بعد الكتابة إليه .

ويغلب أن يبقى السفير للوزير بعد الحديث مذكرة لتأييد ما قاله في حديثه ، وذلك في المسائل المعقدة خاصة ، وتكون الوثيقة المكتوبة ملحقة ، أما إذا قدم السفير وثيقة بأمر الحكومة فحينئذٍ يكون الشرح الذي يلحق بها مضافاً .

والعلاقات الكتابية تأخذ صيغاً شتى ، فالمذكرة يخاطب بها الوزير وتحتوي على صيغة المجاملة الختامية ، وقد تكون بصيغة الشخص الثالث . والمذكرة الشفوية لا توقع ولا بأس من احتوائها صيغة المجاملة ، والمذكرة والخواطر في صيغها الأخرى لا توقع أيضاً وأسلوبها مختصر مجرد ، وقد يضاف إلى هذه المذكرات أنها بأمر الحكومة لتعزيز ما فيها ، على أن هذا من الفضول والزوائد لأن ما أرسل يكون بأمر الحكومة ، وقد تضاف كلمة « سري » . ويجب أن يكون المكتوب واضحاً محدداً مهذباً بعيداً عن الجفاء الذي هو مغاير للقواعد السياسية ، ولا بدَّ من المجاملة في الألقاب . وأما الشؤون المهمة السياسية فتعالج بمذكرة موقعة ، والرسائل الخاصة توضع في الشكل الذي تقتضيه العلاقة بين المتراسلين .

ب — السفراء

يقوم السفير بمهمة تمثيل بلاده ، فينبغي عليه أن يكون رسول سلام وأن يجعل شخصه قريباً من القلوب بمظهره وكلامه وأساليبه ، وهو لا ينال ذلك إلا بتربية صحيحة وثقافة عالية ولهجة أنيقة وعشرة طيبة ، فيحافظ على كرامته بدون كبر ولكن بإباء وترفع ، ويكون حسن البزة ولكن بغير تكلف ولا تصنع ولا إغراق . وتختلف الحاجة إلى المظاهر باختلاف البلاد التي يكون السفير فيها واختلاف أوضاعها . وعلى كل حال فإنه لا يجوز الإفراط الذي ينقلب إلى حد الهزؤ والسخرية . والسفير الذي يمثل سياسة ليست الفضيلة عنصرها المميّز عليه أن يكون في حياته الخاصة بعيداً عن كل ما يدلسها ، فهو عرضة للمراقبة ، والسيرة الحسنة تنفعه كما تنفع بلاده لأن العالم يألف التعميم ، وهو بذلك يكون أيضاً مؤثراً في معاونيه ؛

ولا يكون قدوة لهم في عمل سيئ . وإذا استعمل السفير الدهاء والحيلة في بعض حاجاته فينبغي عليه أن لا يخرج عن شروط الرجل الشريف، والحيلة تدل في الغالب أن الرجل قليل الرأي ضعيف التدبير ، وأصحاب الأخلاق الكبيرة يشمئزون منها . وعلى السفير أن لا ينصب نفسه للدفاع عن قضية البلاد التي هو فيها ولا ان يقاومها بكل ما لديه من روح المقاومة والمعارضة وهو في البلاد الحمية . فمهما تكن درجته فعليه أن يكون مضاعف البراعة وأن يحسن التفريق بين البلاد الحامية والبلاد الحمية . وعليه أن يفي بما يعد به ، فما قيمة السفير إذا أصبحت كلماته باطلة ووعوده كاذبة وضميره ساقطاً . وعليه أن يتجنب المفاجأة والكبرياء وأن لا يضايق محدثه بمحاولة إظهار براعته والإدلال بصحة رأيه . ومن مقتضيات الحذر الإصغاء برفق وتواضع لحجج الآخرين وعدم التعنت المطلق بحججه . وعندما يريد الاعتراض على رأي يجب أن يحمل إلى المناقشة إلماماً وعدلاً مهما تكن القضية التي يدافع عنها حقاً ، فلا يشعر أحد بتعامل على رأي بيديه . ولا بأس بالتسليم في بعض الأحيان لاستمالة المحدث ثم الاستئناف بعد ذلك للوصول إلى النهاية العالية .

وينبغي اجتناب الافراط في الحماسة أو في البغضاء والحذر من قلق النفس الذي يعطل العمل ويحرم الصبر والدأب . ومهما يكن الرجل الذي يراد إقناعه فينبغي حسن العناية به والالتفات إليه ، وكلمة طيبة في محلها تصلح من الأمور أكثر من جواب عنيف أو طلب مثير . ويجدر بالسفير أن لا يكون كثير الانطلاق وأن يظل بعيداً في فكرته قريباً في نفسه . والتواضع السياسي — وإن كان تظاهراً في بعض الأحيان لتحقيق بعض المآرب ومعرفة بعض الأمور — يُحمد أثره إذا لم يكن مقروناً بالمبالغة . واجتناب الغضب يجعل المرء متمكناً من نفسه فلا تبدر منهُ بادرة تثقل كاهله أو كاهل بلاده كما وقع (لبتمن هولوغ) عند ما وصف حياد البلجيك بأنه قصاصة ورق . ثم يطالب السفير باحترام العقائد الدينية مهما يكن مذهبه ، وأن لا يهتم بالاتصال بالذين يتهافتون عليه منذ وصوله ، فقد يكون هنالك أشخاص لا قيمة لهم وأشخاص محرضون ، والتهالك على تغيير كل شيء لا تحمد عواقبه ، فينبغي السير هوناً في التجديد والاصلاح ، وإذا لم يكن حسن التصرف فطرياً فالطبيعة تساعد على نموه .

وهنالك قضايا لا تزال موضع الجدل والمناقشة فيما يتعلق بجواز ما يصنعه السفراء أو عدم جوازه كالكذب والافساد والتجسس والرشوة . وقد كانت تتناقل الألسن فكاهة مشهورة وصف بها سفراء البندقية ، وهي أن السفير رجل شريف أرسل إلى الديار الأجنبية حتى يكذب باسم الجمهورية ، وقيل أيضاً مثل ذلك في السفير : إنه يتجسس لدولته بصورة

رسمية. ولم يكن (مكيافللي) ومن حذا حذوه يشاركون الأديان والمعتقدات في استنكار الكذب واعتبار بعضها إياه من الكبائر ، لأنه في نظرهم لا يجوز البحث والمناقشة عندما تكون سلامة الدولة في خطر . ولكن ما أقل الذين يستطيعون أن يقفوا بين أيدي الحقائق غير مفتقرين إلى تحريفها . على أن الصمت يكون في بعض الأحيان منجاة لأصحابه من قول الباطل أو من التعرض للخطر بذكر الحقيقة . أما الافساد واستخدام الجواسيس فهو من الضرورات المزدراة ، على أنه يعذر سفير إذا قام بتنفيذ أمره به رئيسه . ولكن هل يجوز له أن يتدخل في سياسة محلية ويعارض الدولة التي هو فيها . وإذا كانت مهمة السفير خدمة بلاده لا خدمة البلاد التي هو فيها أو دفع الضرر عنها فانه يقتضي مع ذلك إذا كلفه سيده بأمر أن يحذره قبل أن يطيعه ، وإن كان الرفض به أجدر والتحريض على الجريمة شر من ارتكابها . وتتدبر الأمور بقدرها في حالات يرجى فيها اجتلاب خير أو دفع شر .

أما المال فقد كان (فيليب المقدوني) يقول إنه يفتح كل حصن مغلق ، وهو عند المعاصرين كذلك ، وقد كانت الهدايا من العادات المألوفة عند الملوك والسفراء وأعضاء المجالس العامة ، ولكن الأمر الذي يصعب تمييزه هو أين تنتهي المجاملة وتبدأ الرشوة ؟ فعلى السفير أن يكون شديد الحذر في قضايا المال حتى لا يصيب سمعته بأذى ، ويجب عليه أن يأبى قبول أية هدية يمكن أن تؤول أو أن تتخذ وسيلة لغاية حتى إنه إذا استطاع أن يرد هدايا مواطنيه كان ذلك خيراً له . وينبغي عليه أن يكون جواداً سمحاً ولكن بدون إسراف ولا إفراط ولا محاولة للظهور بمظهر الفائق على أصحاب الغنى والجاه في البلاد التي هو فيها .

ولما كان في مقدمة الأعمال التي يقوم بها السفير إطلاع حكومته على سير الأمور فعليه أن لا يتهاون في تتبع الحوادث ومراقبة اتجاهاتها ومن وسائل الاستطلاع الاتصال بالملوك والرؤساء والأمراء والوزراء وكبار موظفي الدولة ورجال الحكومة المتقاعدين ورجال المعارضة ورجال السلك السياسي ، واتخاذ المخبرين المؤتمنين ومراقبة الشؤون الداخلية بحذر وأناة ، وإقامة المآدب والحفلات ، وتأمل الأشياء والأشخاص ، والاستعانة بصدق الشعور الحكم الصحيح في الأمور على إدراك الحقائق . والصحافة وسيلة مهمة للأخبار سواء صحافة البلاد التي فيها السفير أو صحافة البلاد التي تنتمي اليها ، ومهما كانت أنباء الصحف تحمل الحقائق والأباطيل ولا يكفي تمييز بعضها عن بعض فانه لا يجوز إهمال شيء منها . على أن الأخبار الملفقة تفيد فائدة كبرى لأنها تكشف القناع عن روح التحزب عند الذين يخترعونها ، سواء أكانت الأنباء أم غير مرضية ، فالذي يهم هو معرفتها في حينها .

وقد كان (لويس الرابع عشر) الذي يعد من كبار الملوك السياسيين قد حض سفراءه على مواقاته بجميع الأنباء لأنهُ يريد معرفة الأنباء السيئة كما يريد معرفة غيرها على أنهُ يحسن اجتناب الأنباء التي لا تفيد إلاَّ إثارة النفوس ، وقد وقعت حادثة لسفير إنكلترة في فرنسة أيام حرب السعين بقيت مكتومة ثلاثين سنة ، وذلك أن السفير قبض عليه بتهمة الجاسوسية ثم أخلي سبيله وكان معهُ بعض موظفيه فأمرهم بالصمت إذ لا فائدة من ذكر الأنباء التي لا علاقة لها بأعمال الدولة .

وقد تكون مهمة السفير أصعب في بلاد منها في غيرها ، وذلك بحسب ما تستطيع البلاد كتمانهُ من شؤونها العامة وما تعرضهُ لأنظار المراقبين لها ، ولا يجوز للسفير أن يعتمد في أنبائه على الظنون ولكن على مقدرة في الملاحظة والاستطلاع ، وينبغي أن يكون على حذر من الجواسيس إذا لم يجد بدًّا من استخدامهم لأن هذه الطائفة من الناس لا تبالي في سبيل المال أن تخترع الأنباء ، ولما كانت صناعتهم تقصيهم عن أن تكون لهم ضمائر تحاسبهم فهم لا يترددون في خيانة الذي يبذل لهم المال إذا وجدوا من يزيد في عطائهم .

والسفير يعرف ماذا ينتظر منهُ بحسب البلاغات والأوامر التي لديه ، ويحسن أن ترسم له خطة قبل سفره وأن تكون واضحة بينة لا تحتمل شكًّا أو تأويلاً . على أنهُ بوجوده في مكان عمله له حق التقدير ويمكنهُ أن يجد من الدلائل والبينات ما لم يكن عند واضع الخطة . وإذا كانت مهمة السفير تقتصر على نقل ما كلف به وحمل الأجوبة التي يتلقاها فلا حاجة إلى أن يكون حذراً أو فصيحاً ولا أن يبذل العناء في حسن الاختيار .

وجملة ما يقال أن في حسن إدارة الأخبار وتلقيها وملاحظة الأشياء والأشخاص والاستدلال بالوقائع والأحوال والجد في تسيير الأمور وتمثيل البلاد خطر مهمة السفراء .

وقد كان يتوقف عليهم فيما مضى المحافظة على توازن الدول ، فكانوا هم المتفاوضين العاملين في وضع المعاهدات التي كان بعضها مثل معاهدة (وستفاليه) Westphalie من الحوادث الخطيرة في تاريخ العالم ، وقد أريد أن تقوم عصبة الأمم مقامهم في تسوية قضايا الشعوب ، فأصابت بعض النجاح ، ولكنها لم تصل إلى الغاية التي أرادها منها منشئوها وانتهى أمرها إلى الإخفاق .

ج — القناصل

كان القناصل في الماضي رجال تجارة وكانت التجارة تسبق السياسة وتمهد لها السبل . والقناصل هم الرجال المقيمون في الديار الأجنبية للسهر على مصالح مواطنيهم ، وقد وصفهم

(تليران) بقوله : إن خصائصهم تختلف اختلافاً لا حد له ، وهم يقومون بوظيفة ضابط الأحوال المدنية وكاتب العدل وأحياناً بوظيفة القاضي والحكم ، وأحياناً بوظائف تجرية ومراقبة الاحوال الصحية في السفن ، ويمكنهم أن يروا رأياً صحيحاً في التجارة والملاحة والصناعة في البلاد التي يقيمون بها . ويفيد القناصل بما يبدونه من آراء تجار البلاد وأرباب المصالع . وقد قررت المحاكم الفرنسية في اجتهادها اعتبار القناصل موظفين عامين ولكنها رفضت لهم صفة التمثيل التي ليست إلا من حق رؤساء البعثات السياسية والسفراء والوزراء . والقناصل لا يتلقون كتب اعتماد من حكوماتهم ولكن كتباً تعترف بهم ، ولا يمكن القيام بوظائفهم ما لم تمنحهم الحكومات التي يعينون لديها صفة التنفيذ من غير أن يكون لهم صفة سياسية ، ما عدا بلاد الشرق ، فقد كانوا يتمتعون فيها أحياناً بهذه الصفة وبما يترتب عليها من مكانة .

وعلى كل حال فانه ينبغي الاعتماد على القناصل والثقة بهم وإن كانوا يسرفون في الغيرة على مصالح المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ويحسبون أن كرامة بلادهم تتعرض للاهانة في الصغيرة والكبيرة ، وهذا النوع من الاسراف هو الذي اتفق على استنكاره أقطاب السياسة مثل (تليران) و (بسمرك) و (تيرس) .

﴿ الذيل ﴾

بعض الآراء الاسلامية فيما يلابس ذلك

الدبلوماسية من منشآت العصور الحديثة . ولكن الفكر الانساني كان عليه أن يعالج الأمور المشابهة لها ، فلذلك نجد المؤلفين في أبان الدولة الاسلامية والحضارة العربية يعرضون بطبيعة الحكم وجانبان السلطان الى مثل هذه الامور التي أوردنا ذكرها تقلاعن المؤرخين ، وبحثوا في أساليب الكتابة في مختلف الأحداث الخطيرة وفي شؤون السفراء والرسل والعيون والجواسيس ، وكانت هذه الأبحاث تتصل بنواحي الشرع والفقه والسياسة والأدب ، ونحن نقتبس هنا بعض ما أوردوه من ذلك :

١ — الكتابة في الأحداث الخطيرة

ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « مواد البيان » ما يكتب به عن السلطان من غير يزيد الثورة عنه وستر حقيقته كالاعلام بالحوادث الحادثة في الملوك والنوائب المالة بالدولة : من هزيمة جيش أو تفتيت رسم أو اختلاله أو تكليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه وما اشبه ذلك ، ويجب أن يقصد بذلك الى الاختصار والايجاز ويعدل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى الى غيرها مما يحتمل التأويل ولا تنفر الاسماع منه ، ولا تراع القلوب به ، من غير أن يحتمل كذبا صراحاً ، فانه لا شيء أقبح بالسلطان ولا أعض لشأنه وقدره من أن يعلن كتابه بما ينكشف للعامة بطلانه ، وينبغي للكاتب أن يتخلص من هذا

الباب التخلص الحيد الذي يربن به الأمر من غير تصريح بكذب ، وأن يخرج الباطل في صورة الحق ويعرض سلطانه في ذلك للاحاد والتفريط من بحيث يستحق التأديب والانتقام ، فان هذه سبيل البلاغة وطريقة الصناعة لأن الأمر الظاهر الحسن الجميع على فعله لا يحتاج في التعبير عن حسنه الى كد الخاطر وانتصاب الفكر ، وانما الفضل في تحسين ما ليس بحسن وتصحيح ما ليس بصحيح ، بضروب من التمويه والتضليل واقامة الشواهد من العقل على الاساءة والتقصير من حيث لا يلحق كذب صريح ولا زور فاضح

ب — السفراء والرسل

وجاء في « كتاب رسل الملوك » المنسوب الى أبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء فصول جليلة الفائدة على قصر فيها وايجاز تذكر الحدود التي يجب أن يقف عندها الرسل في سفاراتهم والصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها كالصبر والوقار والاناة والشجاعة والحلم والصدق . وقد جاء في هذه الفصول ما يلخص بعضه في ما يلي هذا :

« اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا فصيحاً بليغاً حولا عليماً قليل الغلة متهيء الفرصة ذا رأي جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد ، فطناً للطائف التدبير ومستقلا بما ترجو وتحاول بالحزم واصابة الرأي ، متعقباً له بالفكر والتمييز ، ساعياً الى ما يستدعيه اليك ويستدفعه عنك ، ان ساول جر أمر أحسن استلاله وان رام دفعه أحسن رده ، حاذر الفضاحة مستنر العثار ظاهر الطلاقة وثاباً على الحجج ، مبرماً لما نقض ناقضاً لما أبرم ، يحيل الباطل في تخاص الحق والحق في تخلص الباطل ، محتالا في محاورته ومكايده ، وليكن من أهل الشرف والبيوتات ذا همة عالية ، فانه لا بد مقتف آثاره وليه يجب لناقبها مساو لأعلاه فيها . فمتى اجتمعت لك فيه هذه الخصال فاجعله من بطانتك واطلعه طلع أمرك ضميره وخبيره واستشره في شؤونك لطيفها وجليلها . »

ويحسن أن يكون الذي تختاره للتوجه في الرسائل جهير الصوت حسن الرواء مقبول التهائل جيد البيان حافظا لما يبلغ ليؤديه على وجهه . ولا يمنعه الصدع عن سلطانه رشية يقدمها ليمن يتوجه اليه ولا جهالة يستشعرها في نفسه ونقديم النصيحة لرئيسه . فانه متى لم يكن المتكفل لهذا العمل واسع الحيل بابا من التحريف والتمويه فيما يختلف فيه بين السلطان وبين من يراسله ويناظره على لسانه بما يحتاج اليه ، فان عدا هذه الصفة وقع في أعمال السلطان بذلك أظهر خلل وأعظم ضرر ، ولذلك يجب على الناس أن يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصلح له ويستقل به ويجريه على وجهه . ويلبغي أن يكون الرسول حاد البصر ذكي القلب يفهم الايماء ويناظر الملوك على السواء ، فانه انما ينطق لسان مرسله . . فاذا ذكر عرف واذا نظر اليه لم يحتقر . . لا تقتحمه العين ولا يزدري بالحيرة . . . والامامة ترمق المنظر أكثر مما ترمق الكفاية والسواء . ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه حتى لا تشغله نفسه الى ما يبدل له ويدلج اليه فان الطمع يقطع الحجة والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه . . ثم ان الرسالة محدوداً لا يتسع تعديها وخطوطاً يلزم القيام بها ، اولها ايثار الصدق وتعمد النصح وأن يصدع بالرسالة وله أن يدع المعنى المغلظ منها في الألفاظ اللينة . . والرسول محتاج من الاحتشام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والرزانة ، لأنه ليس على كل الطبقات بشدة ولا لكلها بلين ، ورعا لم يسعه الا أن يصدع بالرسالة على ما فيها ، فان لم يكن جريئا مرحها وأخل بها » .

وقد أورد الوزير نظام الملك في كتابه « سياست نامه » الذي وضعه بالفارسية فصلا في الرسل وطريقة معاملتهم نصح فيه بمراعاتهم والاحسان اليهم حتى يرضوا ويذكر انهم يقومون مقام الملك الذي أرسلهم ، فكل حركة لهم تكون موجبة له . وقد تعارف الملوك على أن يتبادلوا حسن المعاملة وأن يكرموا الرسل الذين يأتونهم فيبزوا شأنهم ويرضوا ذكرهم واذا اختلف الملوك وتنازعوا فان السفراء كانوا يقومون داعماً خير قيام بما يعهد اليهم من الأمور المهمة على حسب ما لديهم من الوصايا والتعاليم . ولم يعرف أن الرسل أسيء اليهم وأنهم عوملوا بغير ما ألف من العادة ، واذا وقع شيء من ذلك أنكره جميع الناس .

ولم يرد الملوك بارسال السفراء أن يمشوا برسالة ويكتفوا بها ولكن يريدون أن يعرفوا كثيراً من أحوال المملكة ودقائق شئونها ، ولا يجوز أن يركن اليهم بالكلية لهم كاليون والجواسيس وأصحاب الأسرار . واذا أراد ملك أن يرسل رسولا عليه أن يحسن انتخابه من أولي المعارف الرياسة والمدارك البعيدة وطلاقة اللسان وبهاء المنظر وحسن الخبر .

ج — العيون والجواسيس

قال صاحب «صبح الاعشى» : «النظر في أمر العيون والجواسيس جزء عظيم من تدبير الملك وعماد المملكة وقد شرطوا في الجاسوس شروطاً : منها أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، فان الخائن لا ينتفع بخبره وان كان صادقاً لانه ربما أخبر بالصدق فتهم فيه بتلوين فيه المصلحة ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليعرف بنور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كشره . ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ... ومنها أن يكون له دراية بالاسفار وعمرة البلاد التي يتوجه اليها ومنها أن يكون عارفاً بلسان أهلها ... ومنها أن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من عقوبة ان ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مليكه ولا يطلع على وهن في مملكته ، فان ذلك لا يخلصه من يد عدوه ولا يدفع سطوته عنه .

فاذا وجد من العيون والجواسيس من هو مستكمل هذه الشرائط وما في معناها عليه أن يظهر ضم الود والصداقة ولا يظلم أحداً منهم في زمن تصرفه له انه يتهمه ولا أنه غير مأمون فيه ، فربما آذاه ذلك في أضيق الاوقات ان يكون ضيقاً عليه ... وعليه أن يجزل لهم الاحسان والبر ولا يثقل تعاهدهم بالصلات قبل احتياجه اليهم ، ويزيد في ذلك عند توجيههم الى المهمات ، ويتعهد أهليهم في حضورهم وغيبتهم .. واذا تفضى على من بعثه منهم بقضاء أحسن الى من خلفه من أهله ، وجعل لهم من بعده من الاحسان ما كان يجعله له اذا عاد ينتفع عليه ليكون ذلك داعياً لغيره على التضحية . واذا تعذر ان عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبة وهو ثقة فلا يستوحش منه بل يوليه الجميل ويماله بالاحسان . وعليه أن يحترز من أن يعرفه جواسيسه بعضهم بعضاً لا سيما عند التوجه للمهمات ، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل ، وان لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى ايصاله اليه . . وأيضاً فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه ومحالأتهم لعدوه . . وعليه أن يصغي الى ما يلقيه اليه كل من جواسيسه وعيونه وان اختلفت أخبارهم ويأخذ الأحوط فيما يؤديه اليه اجتهاده من ذلك ، ولا يجعل اختلافهم ذريعة لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله . . واذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فيستقرها عنه وعليه ولا يبادره على ذلك ولا يوبخه عليه فان وبخه هي خلوة فليطف .. فان ذلك أدعى لاستمالته .. واذا أحضر اليه جاسوس يخبر عن عدوه استعمل فيه الثبت ودوام البشر ، ولا يظهر تهمة له عليه تظهر معه الحفة ولا اعراضاً عنه بفوت معه قدر المناصحة ولا يظهر له كراهة ما يأتيه من الأخبار المكروهة ، فان ذلك مما يستدعي كتمان السرعة فيما يكره فيؤدي الى الاضرار ...

واعلم أنه لا يمكن أحد أن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه فيجب الاحتراز منهم بكتمان السر وستر الورة ما أمكنه ، على انه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان الى أن يعرف الملك عدوه بعض أموره على حقيقته لأمر يحارك به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوس عدوه جاسوساً له ، بأن يتودد اليه بالاستمالة والبر وكثرة البذل . حتى يستخرج نصيحته ، فحينئذ تلقي اليه ما أراد تبليغه الى صاحبه الأول مما فيه المكيدة فيوصله اليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه» .

٥

« دمشق »

المآصر في بلاد الروم والاسلام

لجوائيل عوّاد

— ٩ —

(ه) مآصر القاهرة

أشرنا غير مرّة في ما مضى من بحثنا هذا ، إلى أن كلاً من المآصر النهرية والبحرية اتخذت لصدّ أخطار الغزو الذي يقع بين حين وآخر على البلاد ، ولتنظيم سبل التجارة وتسهيل أمر استيفاء الضرائب والعشور ، ولكنها هاهنا في القاهرة لم تتخذ لهذه الأغراض ، بل نصبت لأمرٍ فريد غريب انفردت به دون ما سواها من المدن الراكبة سواحل البحار اللجة وضفاف الأنهار . وسأقصّ عليك من أخبار هذا المأصر الفريد ما وقفت عليه من الأنباء .

إن من جملة الخلجان الخمسة التي بظاهر القاهرة ، خليجاً[1] يعرف بـ « خليج فم الخور[2] » قال المقريزي إنهُ « يخرج الآن من بحر النيل ويصبّ في الخليج الناصري ليقوي جري الماء فيه ويغزره ، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصري يعدّ خليج الذكر . . . »[3]

وكان هذا الخليج من متنزهات أهل القاهرة ، وأحد مواطن اللهو والتيه ، يتبرون فيه بالمراكب للتنزه ، وكان أكثر روّاده من أهل القصف والبطالة ، « فظهر من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات . . . فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهنّ المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهنّ ، ووجوههنّ مكشوفة وحرةٌ وهنّ من الرجال معهنّ في المراكب لا يمنعون عنهنّ الأيدي ولا الأبصار ، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار ، وتوقّع أهل الراقبة ما يئول هذا الخطب من المعاقبة »[4].

وكان على خليج فم الخور قنطرة واحدة هي المعاة بقنطرة القصي[5] . قال المقريزي إن قنطرة القصي هذه « على خليج فم الخور وهو الذي يخرج من بحر النيل ويلتقي مع الخليج الناصري عند الدكة فيصيران خليجاً واحداً يصبّ في الخليج الكبير . كان موضعها جسراً يستند عليه الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربع عشرة ذراعاً فيفتح ويمرّ الماء فيه

(١) خليج ، « انظر الذيل رقم ١ » (٢) الخور ، « انظر الذيل رقم ٢ » (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٥) (٤) خطط للمقريزي (٣ : ٢٣٣) (٥) انظر كلاماً مفصلاً على القصي في خطط المقريزي (٢ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ، و ٣ : ١٩٦ — ٢٠٢ و ٤ : ٦٥ — ٦٦)

إلى الخليج الناصري وبركة الرطلي[1] » . . . وما زال موضع هذه القنطرة معدًّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبد الله المقسي في أيام السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضاً بجانبي هذا الخليج من حيث ينتدئ إلى أن يلتقي مع الخليج الناصري ، ثم حرب أكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة . وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصري في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحدّ بكثرة التهتك والتمتع بكلّ ما يلهي إلى أن ولي أمر الدولة بعد قتل الملك الاشرف شعبان بن حُسَين الاميران : برقوق وبركة فقام الشيخ محمّد المعروف بصائم الدهر فمنع المراكب من المرور بالمتفرجين في الخليج ، واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك في المراكب من المحرمات ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات ، فبرز مرسوم الاميرَيْن المذكورَيْن بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسي هذه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلاّ أن يكون فيها غلّة أو متاع ، فقلق الناس لذلك وشقّ عليهم . وقال الشهاب أحمد بن العطّار الدنيسري في ذلك :

حديث فم الخور السلسل ماؤه بقنطرة المقسي قد سار في الخلق
ألا عجبوا من مطلق ومسلسل يقول لقد أوقدتم الماء في حنقي
لسلسلت[2] قنطرة المقسي تمسا قد جرى والمنع أضحى شاملا
وقال أهل طبنسة في مجنهم قوموا بنا نقطع السلاسلا

ولم تزل مراكب النزهة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا.» [3].

وقد تطرّق السيوطي إلى هذه السلسلة حينما ساق الحوادث الغريبة الكائنة بمصر في ملّة الإسلام ، فقال : « في سنة إحدى وثمانين (وسبعمائة) رسم الأمير بركة ... بأن يُجعل على قنطرة فم الخور سلسلة تمنع المراكب من الدخول إلى بركة الرطلي. فقال بعض الشعراء في ذلك :

أطلقتُ دمعي على خليج مذ سلسلوه فراح مقفل
مَن رامَ من دهرنا عجبا فلينظر المطلق المسلسل[4]

(١) انظر بركة الرطلي في خطط المقريزي (٣ : ٢٦٣ — ٢٦٤) ، وفي بدائع الزهور (١ : ١٦٣ — ١٦٤) . (٢) في المطبوع « لسلست » وهو تحريف ظاهر (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٤٤ — ٢٤٥) (٤) حسن المحاضرة (٢ : ١٦٣) ، المطبعة الشرقية (— (٢ : ١٨٢) ، مطبعة الوسوعات بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الفنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى.

بشر فارس

المقتطف، يناير ١٩٤٥

المشتمل

سنة مضت

صورتان من الفن العربي في دمشق

١ — الكتب

أبو نواس	نقد	بقلم محمد عبد الغني حسن
جمهور أرسطفانس	—	— وهيب كامل
رسالة الملائكة	—	— رفعت فتح الله
كتاب فتوح إفريقية والأندلس	—	— زكي محمد حسن

كتب ظهرت :

تاريخ جرح — جبران خليل جبران — رسالة الهناء - الشوامخ — الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية نقد بقلم *

٢ — المجلات

«الأديب» العدد الخامس بأبي الحجاء بقلم عبد السلام محمد هارون

٣ — المسرح

صفق الجمهور فصفق النقاد — زكي طليمات

٤ — الاستطلاع

الامتاع والمؤانسة الجزء الثالث — مصطفى جواد

٥ — المسائل

الأديب وحرفته — بشر فارس

وفي أيّام ازدهار هذا الخليج وارتياده من أهل الخلاعة والقصف وذوي الآداب والظرف عُمّرت البقاع المطلّة عليه، فأنشأ الناس به ديارا جليلة تناهى أربابها في إحكام بنائها وتحسين سقوفها، وبالغوا في زخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار، وأجروا إليها المياه من الآبار، فكانت تُعدّ من المساكن البديعة النزهة، فكم حوت تلك الديار، من حسن ومستحسن»، قال مَن شاهدها: «ما مررتُ بها قط إلاّ وتبيّن لي من كلّ دار هناك آثار النعيم، إما روائح تقالي المطابخ، أو عبير بخور العود والندّ، أو نفحات الخمر، أو صوت غناء، أو دقّ هاون ونحو ذلك، مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم. ثم هي الآن موحشة خراب، قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة، فزالت الطرق وجهلت الأزقة» تلك هي العاقبة «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»[1]

الضرائب والعشور بمصر

كان الاهتمام بأمر هذه الثغور على مدى السنين عنايةً يأتي في طليعة الأعمال الرئيسة وقد وقفنا على تقليد الخليفة إلى السلطان من إنشاء فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في حدود سنة تسع وخمسين وستمائة يقول له فيه: «... واجعل أمرها (الثغور) على الأمور مقدماً، وشيد منها كل ما غادره العدو مهدماً، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر لمجاوراً والعدوّ له ملتفتاً ناظراً، لاسيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها راتعاً وراح خاسراً، واستأصلهم الله فيها حتى ما أبقى منهم عاثراً»[2]. وهنالك عامل آخر غير صد الغزاة والطامعين، هو استيفاء الضرائب والعشور، وهي من الأسس التي عليها تُروة البلاد، وقد كانت المآثر بمصر تعين الضرائبيين على إتمام عملهم على الوجه الحسن. وذكر البشاري المقدسي أن الضرائب بمصر كانت ثقيلة خاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل، فقد كان «يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار، ومثل هذا وأشباهه، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال. رأيت بساحل تنيس ضرائبيًّا جالساً قبل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار، ومثله جلة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية، وبالإسكندرية أيضاً على مراكب الغرب، وبالفرما على مراكب الشام، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم»[3]. ولما شاهد حسن فيما يرويه الرحالة

(١) سورة الاسراء (١٧: ١٥) (٢) السلوك للمقريزي (١: ٤٥٦—٤٥٧)، وراجع بهذا الصدد: مقدمة ابن خلدون (٢: ٣٢—٤٠، طبع باريس)، وصبح الاعشى (٣: ٥٢٣—٥٢٤).
(٣) أحسن التقاسيم (ص ٢١٣)

ابن جبير، الذي وصل ثغر الإسكندرية في يوم السبت ثاني ذي الحجة من سنة ٥٧٨ للهجرة، قال: « فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو نائن ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل »[1].

خاتمة البحث

هذا ما انتهى إلينا من أخبار المآثر، وهو كما رأيت، كلام جمعت أجزاؤه من غير كتاب، وضمت فوائده بعد أن كانت منثورة في كثير من المظان، تلك التي حاولنا جهد الطاقة أن نجمع أشتاتها، ونفصل ما بين حلقاتها لنخرجها على الوجه الذي بين يديك.

وقد بان لك من مطاوي البحث أن هذه المآثر بصنفيها: النهري والبحري، كانت جليلة القدر، عظيمة الخطر، وعلى أيديها كانت تنتظم أمور الحرب وسبل التجارة مدى أجيال كثيرة في بلدان الروم والاسلام.

« بغداد » ميخائيل عواد

﴿ الذيل ﴾

(١) الخليج على ما في التاج: نهر في شق من النهر الأعظم وجمعه النهر خلجاه، وأنشد:

إلى فتى فاض أكف الفتيان فيض الخليج مده خليجان

وفي الحديث أن فلاناً ساق خليجاً، الخليج نهر يقتطع من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه. والخليج شرم من البحر. وقال ابن سيده: هو ما انقطع من معظم الماء لأنه يجبذ منه وقد اختلج. وقيل الخليج شعبة تشعب من الوادي والجمع خلج وخلجان.

(٢) قال في التاج (٣: ١٩٢، مادة: خ ا ر): « الخور مثل الغور المنخفض المطمئن من الأرض بين الغشرين؛ والخور: الخليج من البحر، وقيل مصب الماء في البحر، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض. وقال غيره: الخور عنق من البحر يدخل في الأرض والجمع خؤور، قال العجاج يصف السفينة:

إذا انتحى مجؤجؤ مسحور وتارة ينقض في الخؤور تقضي البازي من الصقور »

---

(١) رحلة ابن جبير (ص ٣٥ طبع ليدن، ص ٣٩ ـ ٤٠، دي غويه، ص ٧ ـ ٨، ط السعادة).

سنة مضت

رضي نفر من إخوان الصفاء في ألفة الذهن والإخلاص لخلوص الأدب والائتمار بما يرسمه العلم أن يُروا رأيي في استحداث هذا الباب، بل شاءوا أن أكون صاحب توجيهه وتدبيره، فشرفوني بثقتهم. وما أدري هل كنت عند حسن ظنهم بي. (ثم انضم إلى هؤلاء الاخوان بعد ذلك نظراء لهم فضلاء من مصر وغير مصر.)

وكان مقصدنا الأبعد إرضاء فئة من القراء هم شركاؤنا في الصفاء والاخلاص والائتمار ثم تهيئة جيل من القراء ينبذون ما سقط ورخص وزعم. وقد تخيرنا هذه المجلة الجليلة الثابتة لتكون مجال قرائحنا. فأصبنا من أحد منشئيها — مدّ الله في عمره — عونَ العالم وحث الرائد، ثم من رئيس تحريرها ترحيباً وتقويضا.

هذا، وكنا أجمعنا الرأي على أن يكون الأمر على سبيل التجربة مدة سنة كاملة. وهذه اثنا عشر شهراً ولت. فانتهت التجربة. على أنها دلّت — وكم نفرح بالدلالة — أن شركاءنا من القراء كثير، وأن المهذبين من الجيل الطالع منجذبون إلى مثل هذا الجد الصادق. فقد أقبل علينا هؤلاء وهؤلاء من أمصارٍ شتى وراسلونا وأيدونا. فأي ثواب خير من هذا الثواب؟ وإن نحن أمسكنا اليوم عن المضيّ في هذا الباب وطويناه في المقتطف فانما ذلك إلى حين، ريثما تجمع خطوة تلي التي خطوناها فيطّرد النشاط.

ألا شكراً للمقتطف على حفاوته، وسلاماً على من رجع الينا وركن.

ب. ف

١ – الكتب

« أبو نواس » بقلم عبد الرحمن صدقي

٤ × ١٩ س م ١٩٠ ص عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٤٤

قيل إن أبا نواس لم يكن خليقاً أن يكتب في شأنه في سلسلة موقوفة على أعلام الاسلام، وقيل مثل هذا حين أخرج الأستاذ المازني كتابه في هذه السلسلة عن بشار.

وكأنّ الاستاذ عبد الرحمن صدقي توقع الاعتراض على هذا الاختيار، فكتب مقدمة يعلل في شعار منها الحكمة في هذا الاختيار ويدفع عن نفسه وعن صاحب بشار وممّن يعتزمون الكتابة في مثل هذه الشخصية اللاحقة.

غير أن دفاع المؤلف لا يعفيه من الوقوع في اللوم. فإنا لم نعد من الترجمة لأعلام الفقه والسياسة والفتح والفكر حتى نستبق الى الترجمة لأعلام الخلاعة والفجور. إلاّ أن المؤلف قد شاء ذلك؛ فليكن له ما شاء، ولكن لنا أن نقول ما نعتقد.

وهذا الكتاب — في الحق — لم تخرجه العجلة، ولكن أخرجته الأناة وطول الصحبة لأبي نواس. ولهذا تجد فيه الصدق في الترجمة، وحسن التصوير لحياة شاعر شاء القدر الساخر أن يجعله مثلاً للحياة العابثة في العصر العباسي الأول.

وطريق المؤلف في الترجمة طريق صحيحة شائقة. فهو لا يصحب الشاعر من يوم ولادته، ولكن يذهب بعيداً الى أصله والعوامل الفعالة فيه، ولا يزال يعرض ألوان حياته وألوان الحياة التي أحاطت به حتى يشبع فيه القناء من طول ما عجن، فيتذكر طاعة الله وهو نضر هزيل ... والمؤلف رفيق بصاحبه الشاعر، بل قد يلتمس له العذر فيما وقع فيه، وقد يحمل تمريضه بالدين على محمل الهزل واللهو لا محمل القصد والجد (ص ٦٧).

وكان من الطبيعي أن يذكر المؤلف شعراً للشاعر على سبيل الاحتجاج والاستشهاد. ولكن ما بالُه — غفر الله له — لا يتحرى وجه الصحة في الرواية فيكون بعض ما رواه غير مضبوط، أو ناقصاً في الوزن، أو جارياً على غير الرسم الصحيح للشعر. ولو جاز هذا من مؤلف فلن يجوز من عبد الرحمن صدقي الذي ظهرت عنايته بالشعر في كثير من مواضع الكتاب. وما بال من يهدف الى الدقة في صفحة من الكتاب يهملها في صفحة مواجهة؟

في ص ٦٧ : اسقنيها ملأ وفا لا أريد النصفا
والصحيح : اسقنيها ملأ وفا لا أريد النصفا

وفي ص ٨٠ : قد رأينا عربيات يواصلن نبيطا
والرسم الصحيح للبيت : قد رأينا عربيا ت يواصلن نبيطا

وفي ص ٨٣ : لست أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان
والبيت ناقص وتمامه : من لست أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان

وفي ص ٥٩ : تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن منها المدار
والصحيح : « لم يتمكن بها المدار » . (راجع ديوان أبي نواس ص ٢٧٤ من طبعة آصاف، وغيرها في ص ٩٢ سطر ٩، ص ٩٩ سطر ١٦) .

ثم إن في شعر أبي نواس كثيراً من الألفاظ التي تنطلق على الافهام ، فسر المؤلف بعضها وأغفل كثيراً منها . وكان خيراً للقراء لو فسرها جميعاً :

ففي ص ١٠٦ فسر كلمة « الجاثليق » وترك جارتها في البيت نفسه وهي كلمة « مطر بليط » والذي أعرفه أنها تعريب لكلمة Metropolite ، وهو منصب رفيع عند المسيحيين .

وفي ص ١١٤ ترك البيت الآتي من غير تفسير ألفاظه :

نيط بنفاح إلى مدمس بين نخيل الطُّن والبَرْنِ

والطُّن : الرُّطَب الأحمر الشديد الحلاوة . والبرْني : نوع من التَّمْر العراقي . وهناك كلمات كثيرة جداً في شعر النواسي لم يتعرض لها المؤلف بالشرح ، مثل هذه : قِرَاة القس . ص ١٠٥ ، وشمعلة ص ١٠٦، وآيين ص ١٠٨، ودير نهر أذان ص ١٠٧ .

وقد يفسر المؤلف الكلمة بأخرى أكثر منها غرابة ، كما فسر « الدهليز الأزجّ » « بالسابَاط » ، والسابَاط أدخل في الغرابة من الدهليز الأزجّ .

وما كان أتم الترجمة لو أن المؤلف عقد فصلاً في التهكم عند أبي نواس ، بدلاً من الاشارات العابرة إليه . أليس التهكم لوناً من ألوان نفسية الشاعر كان خليقاً بإطالة الوقوف لديه ؟

ثم الوفاء يا أخي ! أيكفيك ويكفي أبا نواس أن تتحدث عنه في بضعة أسطر ـ ص ١٧٧ ؟

ولكنها ملاحظات لا تبخس قدر عمل المؤلف ، ولعله مستدركها فيما نرجوه منه من مستقبل الانتاج .

محمد عبد المنعم خفاجي

« جمهور أرسطفانس » لـ فيكتور إرنبرج

The People of Aristophanes. by Victor Ehrenberg

٢٤×١٧ سم ٣٢٠ ص والواح أكسفرد ١٩٤٣

هذا الكتاب على اتجاه جديد في دراسة الأدب من ناحية علم الاجتماع، وهذا الاتجاه وليد السنوات الماضية، وروّاده النقاد الجامعيون في فرنسة وإنجلترة وقد أخرجوا أبحاثاً في الأدبين الفرنسي والانجليزي تدور على تعرف صفات البيئة وأخلاق أهلها على ضوء النصوص الأدبية. وفي أدبنا العربي الحديث مثل على ذلك هو بحث في اللغة الفرنسية للدكتور بشر فارس عن « مجرى الأدب في مصر سنة ١٩٣٨ » (١)

أما في نطاق الأدب اليوناني القديم فالرائد هو الأستاذ طمسن Thomson بكتابه الجليل « إيسخيلس والآتينيون » (لندن ١٩٤١)، وتلاه الأستاذ ليتل Little بكتابه « الأساطير والشعب في المسرحية الآتينية » (أكسفرد ١٩٤٢)، والكتاب الذي نحن بصدد مراجعته الآن حلقة في هذه السلسلة الجديدة.

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ السابق للتاريخ القديم في جامعة براغة (تشيكوسلوفاكية). وقد أفرد مقالات لدراسة اللابسات الاجتماعية والاقتصادية في آتينة معتمداً كل الاعتماد على النصوص المتبقية من « الكوميدية » (الأضحوكة المسرحية) فجاء كتابه مرجعاً لدراسة أرسطفانس والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لآتينة جميعاً.

وتنفرد الكوميدية في أنواع الأدب في ما تسوقه من شواهد على أحوال البيئة بهذه الميزة: أن هذه الشواهد تجري في الكوميدية عفواً دون قصد، فهي بذلك فوق التجريح وفي ذلك يقول المؤلف: « إن الكوميدية وحدها دون سائر أنواع الأدب تعرض أدلة اجتماعية واقتصادية لا غرض من ورائها سوى إحداث الجو الفني المسرحي » (ص ٦).

ونحن نرى أن الحيطة واجبة هنا على كل حال، فإن تصور الجو الفني المسرحي يتوقف إلى

---

(١) ألقاه في مؤتمر المستشرقين بمدينة بروكسل سنة ١٩٣٨ ونشر في La Revue du Caire (أغسطس ١٩٤٢) ووصفه المقتطف (دسمبر ١٩٤٢ ص ٥٤٠) قالت: « وقيمة هذا البحث في طرافة المادة وملخصها أن الكاتب يبحث في مجرى الحياة الاجتماعية بين التآليف فيستخرج الحالات الذهنية والنفسانية والعقلية والإرادية وتبين النزعات الخفية من ثنايا الكتب »

حد بعيد على وجهة نظر المؤلف المسرحي . هذا وثمة صعوبة أخرى إذ ليس هناك من سبيل إلى التفرقة بين النصوص التي يمكن أن نقف عند المعنى الحرفي في تأويلها والتي ترد مشوهة ممسوخة لأجل إثارة الضحك والسخرية . ولكن مؤلف الكتاب كان حصيفاً في جل ما تناول من شواهد فقد تحذّر وتحوّط .

هذا ، وإن النتائج التي وصل إليها المؤلف — على حداثة الطريقة التي اتبعها في تناول الموضوع — لا تروع القارئ المستطلع إذ ليس فيها من جديد ، والسبب أن كل من عنوا بدراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في آثينة القديمة لم يهملوا النظر في مسرحيات أرسطفانس ولم يغفلوا شاهداً من شواهدها ، ولو أنهم لم يدرسوها تلك الدراسة المستفيضة . ونحن لا نستطيع أن نتخيل صورة للقانون اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد لا تكون مستقاة في بعض دقائقها من مسرحيات أرسطفانس .

وهناك مسائل معدودات نخالف فيها المؤلف ، فقوله إن المحلّفين كانوا يقيدون أسماءهم في مقاطعات مختلفة « ليحصلوا على أكثر من مرتب واحد » (ص ٢٤٢) لا يبدو صحيحاً لنا ، إذ أنهم كانوا يلجأون إلى هذا المسلك ، ليضمنوا اختيارهم في إحدى الدوائر .

ولقد عجبنا للمؤلف كيف يهمل الاستشهاد بالمقطوعة (سطر ١٥٣ — ١٧٠) من مسرحية « آخارنين » في معرض حديثه عن استخدام الجنود المرتزقة في الحرب البيلوبونيزية (ص ٢٢٣) ، فالمقطوعة تدور على كره أهل آثينة لهؤلاء الجند ونفورهم من استخدامهم .

• • •

وبعد ، فهل نحن نرضى عن هذا الاتجاه الجديد في الدرس ؟ أليس من الطرف أن نعد التاريخ الاجتماعي موضوع مسرحيات أرسطفانس ، كما يرى المؤلف (ص ٨٠ وما بعدها) وهل أراد أرسطفانس حقاً لمسرحياته أن تكون وثائق للتاريخ الاجتماعي ؟ (ص ٩٠) . نحن لا ننكر أن بعض مسرحياته وعلى التخصيص بلوتس Plutus كانت معنية أشد العناية بالمشكلتين الاجتماعية والاقتصادية ، إذ تناولت مسألة العدل الاجتماعي وإعادة توزيع الثروة وأثر شهوة الإثراء في الأخلاق . ونحن نوافق أصحاب هذه الدرسة الحديثة على أنه ليس أجدى على دراسة الأدب اليوناني القديم من تبين الصلة الوثيقة بينه وبين أبعد ما يشغلنا الآن من أحداث . ولكن ليس معنى هذا أن نقحم الآثار الفنية الرائعة في مجموعة الوثائق التاريخية ، ولا أن نستقبل هذه الآثار في غير الوجهة التي رسمها أصحابها الخالدون .

رشيد أصل

• رسالة الملائكة • للمعري

بتحقيق وشرح محمد سليم الجندي

٢٥ × ١٧ سم ٣٠٢ ص دمشق ١٩٤٤

قد كان هذا الكتاب دفين المكتبات الخاصة ، ثم انتقل إلى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، على حين تناقل الأدباء قطعة منه ظنوها « رسالة الملائكة » . وهذه الرسالة قد طويت تحت أجنحة هذا العنوان ، لأن أبا العلاء ألّفها في سن الأشياخ ، فتخيل في مطلعها حواره للملائكة يحاول أن يشغلهم بتصريف الألفاظ . . . انظر قوله « والظن إلى الآخرة قريب ، أفترائي أدانع مَلَكَ النفوس فأقول أصل ملك : مألك ، وإنما أخذ من الألوكة ، وهي الرسالة ، ثم قلب ، وبدلنا على ذلك قولهم : للائكة ، في الجمع ، لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها ، وأنشده قول الشاعر :

فلست لانسيّ ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب

فيعجبه ما سمع ، فينظرني ساعة لاشتغاله بما قلت ، فإذا هم بالقبض قلت : وزن مَلَك على هذا القول مَعَل ، لأن الميم زائدة . . . قال عمر بن أبي ربيعة : . . . وأنشد أبو عبيدة : . . . فيقول الملك : من ابن أبي ربيعة ؟ وما أبو عبيدة ؟ وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، وإلاّ فاخسأ وراءك ، فأقول أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، فأقيم الدليل على أن الهمزة زائدة فيه ، فيقول الملك : هيهات ليس الأمر إليّ ، إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . أم تراني أداري منكراً ونكيرا فأقول : . . . ؟ » (ص ٥ — ٩) .

وهذه الرسالة — وإن بدئت بالتواضع المغرق — آية على علاء أبي العلاء في علوم العربية ونفاذ رأيه في طرائف اللغة والتصريف ، حتى إنه يوجه الكلمات الأعجمية في المعرّب العربي فيكاد يخفي سَحْنتها الأعجمية (١) .

وقد جهد الأستاذ الجندي في بحث الرسالة جهداً موفوراً ، وبث في مسائلها شرحاً مفكوراً ، ولعله يتقبل أن نسوق إليه بعض الخواطر التي ساقها نظر الرسالة وشرحها .

(١) قد كان أبو العلاء يعلم أن الأعجمي المعرب لا يجري مع الأصول العربية ، ومثل ذلك رد على أبي إسحاق الزجاج (« رسالة الملائكة » ص ٣٨) ولكنه إذا ظفر بالعربية عانى على بعض الكلمات الأعجمية .

جاء في ص ١١٦: « أبو داود (كذا ذكره مرتين) جارية وقيل جويرية بن الحجاج من إياد ابن نزار بن معد، شاعر قديم، يقال إنهُ أوصف الناس للفرس، وأكثر شعره في وصف الخيل »، والذي نعلمه أنه « أبو دُوَاد » (انظر القاموس، وشرحه، والأغاني، والشعر والشعراء، والمؤتلف والمختلف، والخزانة، وغيرها). والبيت الذي ذكره أبو العلاء في هذا الموضع جاء في موضعين من الصحاح واللسان والتاج (ج و ب ؛ ش و ه) ونسبه أصحابها إلى أبي دؤاد، ولولا ما صنعه الشارح في آخر الرسالة لحسبناه من الغلط المطبعي، ولكنه ذكر في « فهرست أسماء الأعلام » (ص ٢٨٨) ما نصه : « جارية بن الحجاج (أبو داود) ١١٦ »، وذكر في ص ٢٩٠ ما نصه : « أبو دؤاد الإيادي ٧٤، ... ».

وجاء في ص ٥٩ قول أبي العلاء : « ولو قال قائل : ما وزن أنْ ؟ (وهي الأمر من آن يؤُون ، أي رفق في السير) لقيل : وزنه قِلْ وأصله أفْعُلْ ، لأنه من باب قتل يقتل ..... ولو نطق بذلك على الأصل لقيل أوُونْ ، بواوين ، الأولى منهما كانت همزة فجعلت واواً . . . وكذلك قالوا : رُوَيَّة ، فجعلوا الهمزة واواً ، ومن قال رُئْيَة في رؤية ، ألزمه القياس أن يقول أوْنْ ، فيدغم » .

وهذا موضع وعر من مواضع التعريف يحتاج إلى ضبط وإحكام ، فما « أوْنْ » ؟ وهل هذا تنوين ؟ والصواب : أوُنْ .

وجاء في ص ٣٠ : « المطيبون خمس قبائل : بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تيم وبنو زهرة ». وهؤلاء أربع ، فأين الخامسة ؟ لعله سقط منه : « وبنو الحرث بن فهر ».

ولقد كنا نود أن يستكمل الأستاذ الجندي أشياء ذكرها في شرحه دون ترجيح أو رجع إلى الأصول . جاء مثلاً في ص ٢٤ البيت :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجزّ شيحا

وذكر الأستاذ الجندي نسبته إلى يزيد بن الطثرية وإلى مضرس بن ربعي الأسدي ، ثم ذكر شيئاً من ترجمة يزيد . ولعلّ الأستاذ يعلم ردّ العلماء على نسبة البيت إلى يزيد ، فلو رجع نسبته إلى مضرس وذكر شيئاً من قصيدته التي منها هذا البيت لكان أقرب إلى جني التحقيق :

وضيفٍ جاءنا والليلُ داجٍ وريحُ القرّ تحفزُ منه روحا
فطرتُ بمُنْصُلي في يَعْسَلاتٍ يخافُ الوطءَ يخبِطْنَ البَريحا
فعَنَّصَ بساقِ دَوْسَرَةٍ عليها عتيقُ النِّيِّ لم تحفِزْ لقوحا
وقلتُ لصاحبي لا تحبساني بنزْعِ أصوله واجزَّ شيحا

وجاء في ص ٩٢ قول أبي العلاء : « وقد ذكر الفارسي هذا البيت مهموزاً :

أحب المؤقدين إلي مؤسى وجزرة لو أضاء لي الوقود »

وعلى مجاورة الضمة جاز الهمز في : سوق ، جمع : ساق ، في قراءة من قرأ كذلك » . وكان كل ما ذكره الأستاذ الجندي في هذه القراءة قوله : « نسبها البيضاوي إلى ابن كثير » وكان خيراً للأستاذ أن يذكر قول ابن جني — تلميذ الفارسي هامز البيت — في « سر الصناعة » (وقد ذكر كلام شيخه أبي علي) : « وروى قنبل عن ابن كثير : بالسُّؤق : بهمز الواو ، ووجه ذلك أن الواو وإن كانت ساكنة فإنها قد جاورت ضمة الميم ، فصارت الضمة كأنها فيها ، فمن حيث همزت الواو في نحو : أُقِّتَتْ وأُجوه ، لانضمامها كذلك كان همز الواو في : المؤقدين ومؤسى ، على ما قدمناه » .

وجاء في ص ٢٧ ذكر « سفرجل » وتصغيره ، ونقل الأستاذ عن سيبويه في موضعين ، وكان خيراً أن يتم ذلك بذكر كلام سيبويه في الكتاب (ج ٢ ص ١٠٧) .

وكذلك كنا نحب أن يراجع الأستاذ الباحث تصحيح الطبع ، لتقل الأغلاط المطبعية ، ولينبه القارئ عليها إذا كان لها جدول في آخر الكتاب ، ونحن لا نعني بعديدها هنا ، فإن البحث أجلّ من ذلك ، ولكننا نذكر منها مثلاً :

جاء في ص ٥٥ : « لا أنهم ... السنين ... الثواب » والصواب « لا أنهم ... السنين ... الثواب » ... الخ . وكذلك كنا نحب أن يضع الأستاذ الجندي من علائم الترقيم ودلائل الفصل في مفاصل الكلام ما يعبد طريق النظر إليه . وللأستاذ عندنا تقدير كريم .

رفعت فتح الله
أستاذ اللغة العربية بالأزهر

« كتاب فتوح إفريقية والأندلس » لعبد الرحمن بن عبد الحكم

نشره وترجمه : جاتو

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne
Edité et traduit par Gateau

١٤ × ١٩ سم ١٦٣ ص éditions Carbonel الجزائر ١٩٤٢

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المكتبة العربية الفرنسية — Bibliothèque Arabe Française التي تصدر باشراف المستشرق الفرنسي الأستاذ هنري بريس Henri Pérès والتي أريد بها نشر بعض عيون المؤلفات العربية ، ومع كل منها ترجمة إلى الفرنسية ومقدمة

في سيرة المؤلف وآثاره العلمية فضلاً عن بعض الشروح والتعليقات.[1]

ومؤلف الكتاب هو عبد الرحمن بن عبد الحكم المؤرخ المصري المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) والذي كان مرجعاً ثميناً لكثير من أعلام المؤرخين المصريين ولا سيما الكندي والسيوطي.

عني ابن عبد الحكم بالفتوح الاسلامية فكتب فيها مؤلفاً كبيراً سماه « ذكر فتوح مصر » وقد وقف على نشره الأستاذ تورى Cb. Torrey سنة ١٩٣٢.

وختم المؤلف هذا الكتاب بالكلام على فتح إفريقية والأندلس بوصفها امتداداً لتاريخ مصر، ولا عجب فابن عبد الحكم مؤرخ مصري قبل كل شيء. ومع أن كلامه على تلك الفتوح لم يكن بالمسهب عني به المستشرقون الفرنسيون المشتغلون بتاريخ إفريقية حتى أعادوا نشره في الكتاب الذي نحن بصدده اليوم.

وكتب الأستاذ جاتو Gateau تصديراً لهذه الطبعة تحدث فيه عن قصص حوادث الفتح العربي في إفريقية والأندلس وعن سيرة ابن عبد الحكم وعن كتابه ومراجعة المؤرخين الذين نقلوا عنه وتأثروا به، كما عرض لسائر المصادر المعروفة في دراسة الفتح الاسلامي في إفريقية. ونحن نرى أنه اعتمد في ما كتبه بشأن سيرة ابن عبدالحكم وآثاره على ما جاء في المقدمة التي عملها المستشرق الانجليزي جيست Guest لكتاب « الولاة والقضاة » للكندي. ويلي ذلك التصدير نصوص ابن عبد الحكم في ذكر فتح برقة، وذكر أطرابلس ثم اسكندرية عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في غزو إفريقية ثم ذكر فتح إفريقية ومن كان يخرج على غزو المغرب بعد عمرو بن العاص وفتوحه ثم ذكر فتح الأندلس. وإزاء كل صحيفة من النص العربي ترجمتها بالفرنسية.

وختم الناشر الكتاب بطائفة من الشروح والتعليقات أشار فيها إلى بعض المراجع، ووازن بين نصوص ابن عبد الحكم ونصوص جاءت في مراجع أخرى وعرّف فيها ببعض من جاء ذكرهم في النص العربي، وألحق بغير ذلك من البيانات التي تعين على فهم الكتاب؛ وعمل الفهارس التي تيسر الانتفاع به. والحق ان الترجمة الفرنسية دقيقة وحسنة، وإنّ جهد الناشر هنا جليّ وجدير بالثناء.

زكي محمد حسن

• • •

(١) ظهر في السلسلة جزءان، هذا المفتود عرق ثم « نصل المقال » لابن رشد وهو في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (سنة ١٩٤٢). وحسبنا اليوم هذا التنويه.

• تاريخ جوح • بقلم فؤاد الشايب

٢٠×١٨ ١٨٢ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

تدل هذه المجموعة من الأقاصيص على أن فن الحكاية في الشام ـ والمؤلف منها ـ آخذ في الاستواء . ففي هذه الأقاصيص معرفة بأصول المدخل والمخرج والتفصيل والتحليل، وإن كان الذهاب في التفكير والتوجيه غير حافل بعمد ولا ظاهر . وأما العبارة فتدفقة على تلوّن ، وإن كانت على اكتظاظ في التركيب .

*

• جبران خليل جبران • بقلم ميخائيل نعيمة

٢٥×١٨ ٣٠٤ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

من الفائدة أن نخبر القراء بأن هذا الكتاب أُعيد طبعه في بيروت ، فقد نفدت نسخ الطبعة الأولى أو عزّت . وليس في هذه الطبعة مزيد، ولم يلتفت المؤلف إلى ما أثارته الأقلام يوم خروج الطبعة الأولى ، فلم يعلّق ولم يناظر ، وهذا يدل على شدة اطمئنانه إلى ما كتب أولاً . ومن دأب الأستاذ نعيمة أن يكتب وحليفه الاخلاص . وقد نقدت المقتطف هذا الكتاب حين ظهر ، فهل نزيد أنه من خير النماذج في السِّيَر ؟

*

• رسالة الصاهل • للمعري شرح وتعليق كامل كيلاني

٢٠×١٣½ ٢٩٦ ص دار الكتب الاهلية القاهرة ١٩٤٤

في هذه الرسالة يبين المعري كيف ينتقل الطبع الانساني من الكذب إلى الصدق . وينحو في التبيين منحى التمثيل ، شأنه في كثير من رسائله ومن صفحات في « الفصول والغايات » . والرسالة جدّ صغيرة ، إلاّ أن الناشر صنع لها مقدمات وترجمات وحلاها بحواش وتعليقات بحيث أخرج سفراً لم يكن لأحد أن يظنه خارجاً في هذا الحجم . وفي هذه الاضافات لفتات وتنبيهات (هوامش نص الرسالة ص ٢٢١ — ٢٦٤) . ولاهلك أن القارئ يجد في قراءة ما انتهى إلينا من آثار أبي العلاء ، ولا شك أنه رغب في تقريبها إلى الأذهان.

غير انه مال إلى التطويل (الترديد !) فقدم للرسالة في ثلاثة فصول : التمهيد والشرح والترجمة، علاوة على الحواشي، ورضي بفضول الكلام . من ذلك ترجمته لفاتحة الرسالة بهذه الكلمات : «يستهل أبو العلاء رسالته بالمناء ، هناء يقرن به نور وضياء ، وحسن وبهاء ، ورفعة وسناء ، وسمو واعتلاء . لا بل يستهلها بآيات من التهاني، يُرقم بها أنف المبعض الشاني » . ثم دونك نص فاتحة الرسالة : «هناء يقرن به نور وسناء . بل تهانيء يُرقم لمن الشانيء » وفي الهامش يعود الشارح فيقول : « المناء : بهجة وفرح — نور وسناء : رفعة وعلو» .

والرأي أن هذا غلو في التقريب ، حتى الأحداث ليست بهم حاجة إلى مثل هذا . والذي عطف بنا إلى تصور الأحداث أن الشارح يجتهد في شكل الكلمات كلها ، حتى الحروف مثل الواو وفي وإلى . وإذا هو قصد إلى إرشاد الأحداث إلى أبي العلاء — وهذا مقصد حسن حقا — فيا ليته لم يؤثر التزام السجع في كثير من نثره ، فهذا أسلوب قد ولّى زمنه .

والرسالة على كل حال غنيمة ، والتحقيق حسن ، وفي الشرح فوائد .

*

• الشوامخ • الجزء الثاني بقلم محمد صبري

٢٤ × ١٦½ سم ١٥٢ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

يحلو للأستاذ محمد صبري الدكتور في الآداب من السربون أن يعنى بالنقد الأدبي . وله فيه اجتهاد ، ذلك أنه ينظر في « الشعر الجاهلي » وهو موضوع هذا الجزء وكذلك في النثر الجاهلي بعين تدربت على قراءة الروائع في الآداب الأوربية وتصفح آيات الفن من تحت وتصوير . ومن هنا موازناته ولفتاته . ومن هنا أيضاً تركه المأثور من أقوال النقاد السابقين إذ تلتقي لديهم ملكات الشعراء في عبارات متعادلة أو متجاورة . فهو يبحث عن الخصائص والميزات ليفرز عهداً من عهد وطبقة من طبقة . وفي ذلك فضل وجدّ .

غير أنه يسرف أحياناً ، في ما يبدو لنا . من ذلك قوله إن وصف أبي ذؤيب الهذلي لصراع الفارسين في قصيدته العينية « خير ما جادت به قريحة الشعراء على الاطلاق » (يعني من العرب والافرنج ؛ ص ١٤٦) ، ومهما يكن من إسراف فان المؤلف أحسن في تبصيرنا روعة هذا الوصف وما وراءه من قوة ، وحركة ، وصورة قد شبهها بلوح من رقم المصور الاسباني ثيلاسكويز . ومن الاسراف أيضاً عقد موازنة بين قول سيد الراجز وهو يصف فؤاده فيقول :

كأن قلبي والفراق محضور وقد جرى طائر بين مزجور
غصن من الطرفاء رائح تطور

ويبتين للشاعر الفرنسي ڤرلين ، هما :

Il pleure (non : pleut) dans mon cœur comme il pleut sur la ville

وقد ترجمها المؤلف هكذا : « وكأني بالمطر يسقط في فؤادي كما يسقط على المدينة» (ص١١١) . والترجمة عندنا هي : « إن في القلب بكاء (لا مطراً ، كما روى المؤلف وترجم) كالمطر الساقط على المدينة » .

*

• الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية • تأليف عيسى اسكندر المعلوف

١٢ × ١٨½ سم ١٣٨ ص مطبعة الرهبانية المخلصية صيدا (لبنان) ١٩٤٤

المؤلف عناية خاصة بتاريخ الأسر اللبنانية والشامية ، وله في هذا سفر ضخم لم ينشر بعد، أعانه على تصنيفه ذاكرة قوية وخزانة كتب زاخرة . ومن طالع ذاك السفر الجليل الجزء الاول من هذه الرسالة وهي موقوفة على سِيَر لمشايخ اليازجيين في أسلوب مختصر ، همّه الرواية والنقل .

واليازجيون مشهورون في جميع الأقطار العربية ، كلهم الشيخ ناصيف وبراهيم الشيخ إبراهيم . وفي هذا الجزء سرد لأخبارهم الاجتماعية والأدبية ، وفيه فوائد وطرائف، وفيه على وجه التخصيص شعر ونثر مطويان وإشارات إلى مخطوطات ومفقودات نفيسة، من ذلك كتاب « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » وهو معجم كان الشيخ ابراهيم شرع في وضعه ولم ينجزه، وقد كان سلك فيه المأنوس من كلام قدماء العرب بأسلوب علمي وتطرق فيه إلى موضوعات المولّدين والمحدثين .

ومثل هذه الرسالة يُمدّ التأليف في تاريخ الأدب الحديث لما تضم من الأخبار المجهولة والآثار ، فهي من باب التنقيب لا من باب النقد .

*

• قصة البنيسلين • تأليف مصطفى عبد العزيز

١١½ × ١٦½ . ١٥٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

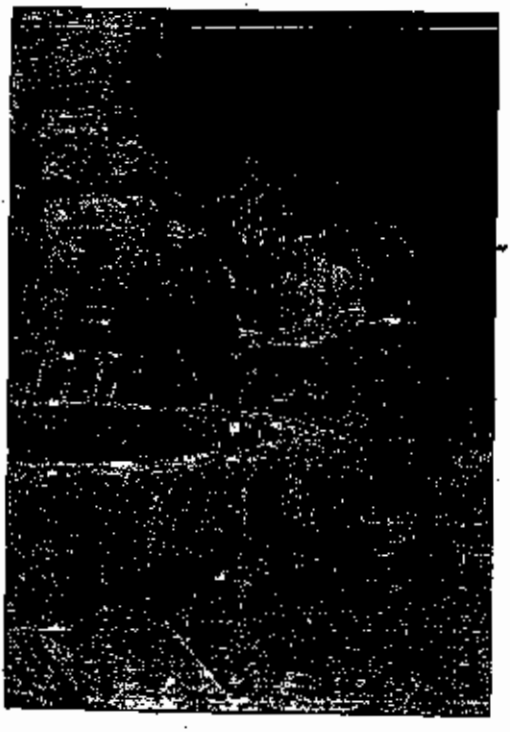

نماذج لمدوات قديمة من الخشب المصنوع في الشام (المئة الـ١٥ والـ١٦) مجرّفة ومزخرفة

أنموذج مستحدث من القاعد ، خشبها مخروط ومحفور

في مصنع المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان

٢ – المجلات

« الأديب » العدد الخاص بأبي العلاء جزءان (يونيو) ١٩٤٤

يقرأ الباحث في كثير من الكتب التي تطرق موضوعاً خاصاً ، فلا يجد فيها تلك اللذة ولا تلك الأصداء المتجاوبة التي تتردد في ثنايا مجلة تنتظم موضوعاً واحداً . ولعل ذلك لتعدد الأقلام التي تتناول بأفكارها وقراءاتها المتباينة ذلك الموضوع وتنظر إليه من زوايا متعددة . وقد جمعت مجلة « الأديب » البيروتية أبحاثاً طريفة حقاً ، منها : « أبو العلاء المعلم » و « سر أبي العلاء » و « القرامطة وأثرهم في أدب المعري » و « أبو العلاء المفكر الحر » و « لغة المعري » و « رسالة الغفران وسابقها » و « فصل من كتاب الأيك والغصون »

وكان الدكتور إسحاق الحسيني موفقاً في إظهار الرسالة التي اضطلع بها أبو العلاء المعلم والنشاط الذي كان يشيعه فيمن حوله من الطلاب والمريدين . وأما « سر أبي العلاء » فهو فرض ساقه الأستاذ الحوفي ، يذهب إلى أن أبا العلاء إنما منعه من الزواج مانع العجز الطبيعي ، وأن السر إنما يرد «إلى سبب مادي طبيعي لا زهد ولا فلسفة » . ولكن كيف نتصور تلك العبقرية المتدافعة المتزاحمة ، في تلك الرجولة الناقصة ؟ إن العبقريات الممتازة لم تكن يوماً في ضعاف الرجال . بل إني لأذهب إلى أن أبا العلاء كان من قوة طبيعة الرجل بالمكان الذي يحمله على التغالي على المطعم والمشرب ، ليكفّ عوارم هذا الميل ، ويصير إلى حال من العفة وضبط النفس . وليس فيما ذكره الأستاذ من شواهد اللزوم ما ينهض حجة صالحة لدعواه الطريفة .

وقال الدكتور أسعد طلس في مقاله القيم «القرامطة» : «وأنا مؤمن أننا حين نعثر على كتاب المجالس المؤيدية في الدين أبي النصر (هو أبو نصر) بن أبي عمران داعي الدعاة . . . » وكتاب المجالس المؤيدية لم يفقد ، فثمة نسخة بالهند أخذت منها صورة مودعة بخزانة جامعة فؤاد الأول . وقد اكتبست لجنة أبي العلاء بالقاهرة نصاً منه في كتابها « تعريف القدماء بأبي العلاء » (القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٨٧) .

إنا لننهى « الأديب » بجهودها البارزة ، وندعو أدباء مصر أن يتقدموا من صفحاتها بمجلات الأمم الشقيقة ، ليتحقق بذلك ما نأمل من توطيد العلاقة بين الأمم العربية وتدعيم التقارب .

٣ – المسرح

لم أنشئ هذا الباب لنتحدث فيه كرة أخرى عن المسرح إذ جدل من قاعده إلى مراجعها يخرج في العين أداء ». والمسرح من أسباب التقدم الحق ، ومن شواغل نفس القائم . فليس أن مسرحية واحدة لم تستحق المراجعة (١) . وكانت الفرقة المصرية (١) وهي حكومية ، أجدر عند عليه الامل . غير أنها آثرت خطة أرادت بها أن ترضي طبقات شتى تتعسن إقبالا كبيراً على ليلاتها ، وفي ما أدته ما يقصيها من مرتبة فرقة رسمية وما يحرف الغاية التي أنشئت من أجلها أولا . وقد أذعت من رادير الشرق ببيروت في خاتمة شهر أكتوبر لهذه السنة رأيي في هذه الفرقة ، فنبهت الأذهان إلى فساد خطتها على أيدي المخرجين والمؤلفين وبعض النقدة . واليوم أحد إلى ثورة الاستاذ زكي طليمات نفسه ، فقد رأسته جلالة الفن الخالص ، والاباء الأسمى طالع من يديه .

صفق الجمهور فصفق النقاد

قدمت الفرقة المصرية في الشهر الماضي مسرحية عنوانها « شارع البهلوان رقم ٧٧٧ » في مسرح دار الأوبرة الملكية بنجاح لم يألفه مسرحنا منذ عهد بعيد ، فقد تجاوز دخل هذه المسرحية في الأسبوعين الأولين خمسمئة والفين من الجنيهات . الجمهور مقبل على مشاهدتها بحال يذكرنا رواد المسرح في باريس ولندن وبرلين ، فالصف من الجمهور المصري في مسرحيتنا هذه ينتظم تجاه شباك التذاكر ويطول حتى مشارف الطريق متعوياً كالافعوان ، وصارف التذاكر يعلن عن نفادها قبل ميعاد رفع الستار بساعات ، وقد أتخذ صوته غير السيد الآمر غير الآبه بشيء ، وإدارة الفرقة تزيد في عدد حفلات إضافية ، ولجنة ترقية التمثيل العربي ، وهي اللجنة المشرفة على الفرقة ، بتبادل أعضاؤها أنخاب الابتهاج والتفاؤل في صحة الفرقة ونجاحها ، والذين يشتركون في تمثيل الرواية كلهم في طرب ، والذين لم يشتركوا في كدهم إذا يعز عليهم أن تخفق الفرقة بنجاح لا يكونون من بواعثه وعوامله . . . ولا يخفى أن لجد المهنة منطقاً لا يعرفه المنطق السليم ، ولا سيما أن الممثلين المصريين يحيون بغرائزهم أكثر مما يعيشون بأذهانهم ، ويعملون بوحي الفردية فوق ما يعملون بروح التآلف

(١) سوى مسرحية « يوليوس قيصر » لشكسبير ، أخرجها زكي طليمات هذا المخرج ، فما استطاعت الركاكة فيه أن تخفي عن بصر في ذلك الفصل .

وعلى الجملة، إن جنبات المسرح المصري ممثلة في هذه الفرقة المصرية تدوي بانفعالات كان طبيعيا أن تمتد إليّ وأنا مخرج الرواية ومقوّم غير المعقول والمقبول فيها...

وأصارح القارئ بأن ما بنفسي من جراء هذا كله إنما هو أخلاط من العجب العاجب، والأسف المرير، والتشفي السادر، وسرطان ما تتلاون هذه الانفعالات عن غيظ حانق كلما أراد نفر تهنئتي بإخراج هذه التحفة الفنية، كما هي في زعم المهنئين (!)

وأغالط نفسي من حيث إن إجماع الناس على الإعجاب لا يجوز أن يكون على شيء باطل أو زعيم تافه. . فأعود الى المراجعة والتأمل ثم الى سؤال نفسي: هل أتى التأليف المسرحي في مصر بهذه المسرحية وأنعته المنتظرة؟ وهل أتيت حقًّا في إخراجها من الجديد الموفق والطريف الممتاز ما أستأهل من أجله التهنئة والثناء؟

وهل أمسيح جمهورنا، في طرفة عين، من رواد المسارح الأمناء حتى يقبل على دور التمثيل بمثل هذا الروح؟ ثم أين هو هذا الروح في «شارع البهلوان، ٧٧٧»؟

ولكن سرطان ما أفيق بعد أن يشرع الضمير الأدبي ميزانه وتتبرى مقاييس الفن ومعاييره تراجع وتحاسب، وهأنذا أقرر يقين النفس فأقول: لا شيء من هذا ألبتة... «وهذه عقدة المسألة» كما يقول (كمليت).

إن مسرحية «شارع البهلوان رقم ٧٧٧» من الأدب الهابط الذي يعوزه الدسم والخصب وهي من سقط متاع الفن باعتبار أنها «ڤودفيل Vaudeville»، أي من اللون الفكاهي المزيل من حيث تحليل شخوص مسرحياته وتقويمهم التقويم الانساني الصحيح، والمنحرف عن شرعة (الكوميدية) الخلقية من حيث عوامل التشويق فيها، وأما دوافع الضحك فتقوم على المفاجآت المفتعلة، والنكات المتكلفة والعبارات المتسلة التي تلذع ولا تخلف ما يلوكه الذهن أو يردده الخاطر لينتفذي به.

وإخراجي الرواية ليس فيه جديد ولا طريف، فقد أخذت فيه بالدرجة الواقعية المألوفة، وفتك أن الرواية خلت من عوامل الإيحاء والتركيز وجرت سياقة مشاهدها على نمط رتيب لا يشحذ خيال المخرج فيبعثه على التوليد والخروج على الطرق التقليدي.

بل لقد تورطت — مكرهاً — في خطإ فني، فقد جاءت مناظر الرواية، على بساطتها، لا تعرض الصيغة المحلية للرواية، بل لا ترعي لصيغتها النفسية، فقد كانت كلها مناظر حُجُرات «دُوَلية» مما يشاهد في بيوت أوربة. وليس فيها ما يشير إشارة واضحة إلى طابعها المصري. والأثاث كذلك نمطه أوربي قديم، (طراز لويس السادس عشر

ولويس الخامس عشر) ، وليس بينه وبين رسم المناظر علاقة من حيث الطراز ، فقد نسيت أن أقول إن مناظر الرواية مرسومة وفقاً لشرعة الفن الحديث . هذا والذوق السليم والحس السائب — وبهما يجب أن يأخذ المخرج في عمله — لا يستطيعان حجرة تخضع في تصميمها وتلوينها إلى أحدث فن ، وأثاثاً يرجع إلى عهد طابعه من مئات سنين . أكرهت على التورط في هذا الخطأ عامداً ... والحمد لله على كل حال .

والممثلون والممثلات ، وإن أدوا أدوارهم في حذق ومهارة ، فإنهم لم يأتوا بالطريف الذي يشد اليهم الجمهور هذا الشد العجيب ويبعثه على الإغراق في الضحك حتى يصرخ منه الوقار . وإني أتجاوز عن نقد الممثلين والممثلات بالمقياس الذي اعتمدته في نقدي للمسرحية لأنهم نهضوا بما حملوه أحسن مما نهضت بحملي ... وأيضاً لأن أجسامهم هشة رقيقة .

إذن لم كل هذه الانفعالات من ابتهاج وحمد ؟ ومن أين يأتي هذا الاقبال الكبير على المشاهدة ؟ وكيف نحم هذا الاجماع على الاشادة بفتنة المسرحية وروعة مواقفها ؟

الجواب يسير ومرير . . إن المسرحية صادفت هوًى من الجمهور ... إذ أجابت رغبته في التفكهة وأشبعت نزعته إلى التسلية الخفيفة الباسمة في هذه الآونة التي اسودّ فيها كل شيء حتى الرغيف بفعل الحرب ، وإذ تملقت بعض خصائص الطبع المصري في ناحية من نواحيه السهلة اللينة . إذن : صفق الجمهور فصفق النقاد . وأقبل الجمهور على المشاهدة فأقبل النقاد على الكتابة مهللين مستبشرين ، واطرد امتلاء قاعة دار الأوبرة بالنظارة فطربت الفرقة وزُهيت إدارتها . . ولو لم يقبل الجمهور هذا الاقبال لانبرى النقد يزعم أن الرواية لم تنجح ، وأن المخرج لم يوفق ، وأن الممثلين لم يحسنوا تلبس أدوارهم . ولو لم يقبل الجمهور لاغتمت إدارة الفرقة ، وعلى الجملة لو لم يقبل الجمهور لما ذاع صيت الرواية . ولا يهم أن تكون الرواية سقيمة المبنى هزيلة المعنى ، خالية خاوية مما يثقف ويهذب ويصلح ويشق الأفق الفسيح للتفكير المتحرر ليس فيها من شيء تهدي له الأذن ، ويشد إليه النظر سوى فرقعة الصواريخ : وهي أصوات وأضواء سرعان ما تخمت وتخبو وتنسحي من عالم الرؤية والسمع .

وإحقاق الحق يقتضي بأن نصرح بأن لا لوم على الجمهور إذا أقبل على مشاهدة المسرحية التي تجاوب زحامه في الساعة التي هو فيها ، وأن لا تثريب على إدارة الفرقة إذا جعلت تعتاض من رواياتها السواد الأعظم من الجمهور حتى تكفل الاقبال على حفلاتها ، وبهذا يتيسر لها أمر تقديم المسرحيات الرفيعة حيناً وحيناً ، وهي مسرحيات لا ترضي إلا الخاصة ، وهم — ويا للأسف — قليل .

لكل هذا جانب من الصواب ، ولكن أين يقف النقد والنقاد من سرحية موقف عامة الجمهور بتلبسهم بزعات الذهاب في الحكم على الرواية وتأديتها ، وتكون مقاييسهم في الحكم من مقاييسه التي يجنوها الحس المرهف والذوق المصفى ، ولعمرها المعرفة بفن كتابة المسرحية وبحرفة الاخراج ، وينقصها الاستقصاء الفني السليم ، فهذا أمره خطره ، وظاهرة عجيبة جديرة بالانتباه .

إن النقد — ذاتيًا كان أو موضوعيًا — يجب أن تكون أحكامه أسمى من أحكام الجمهور وأقوم منهجاً وأوفر نصيباً من الدقة والإحكام ، وأن يكون للتبصير والتنبيه ، وأن يكون حركة إيجابية عنيفة نحو الإصلاح والتوجيه إلى ما هو جميل حقًا وإلى ما يجب أن يكون ولا يبالي في سبيل هذا بالخروج على بدوات الذوق السائد ، وقد يكون مستلزماً تقبيحاً ، ولا بأبه بالأوضاع القائمة ما دامت في حاجة إلى التبديل والتحرير .

يقولون « لا شيء ينجح مثل النجاح » وهي قولة لها ما لها وعليها ما عليها ، ولكن الذي لا شك فيه أن النقد إذا جرى في إثر هذه القولة ولم يراجع ويتحصن انعدم غرضه وامّحى أثره بل إنه يضع موقفاً مزرياً بالدعاية لكل براق خلاب .

• • •

ذلك وجه من وجوه النقد المسرحي الذي طالعني ، ويا للأسف ، عقب إخراجي مسرحية « البهلوان ... » . ولا أتحدث عن وجوهه الأخرى التي تنجم الفينة بعد الفينة ، نجوم قرن الماعز ، فتكون — إلا أقلها — للتشيع والمناصرة من غير حق ، أو هي للتجذيل والمناجزة من غير أصل ، وقد اتسمت في الحالتين بالجهل المزدوج ، جهل الناقد بعارفه ما ينقد وأصوله ، وجهله بأنه يجهل الأرض التي سخر قلمه العابث الضليل للخوض فيها .

أما بعد ، فهذه تأملات أردت تسجيلها سهيًا بحملة الأقلام النزيهة العالمة أن يعالجوا شؤون المسرح في أسلوب جدي رصين يشع فيه الصدق والإخلاص والمعرفة ، فمسرحنا في حاجة الى الخصابة والتوجيه والوعد والوعيد والهدم والبناء .

ويؤسفني من صدمة بكل هذا المسرح أحمل على أكتافي وفر السنين وتجاربها ، وأنوء بأثقال من النقد ، مدحاً وذمًا ، وثناء وشتماً ، أقول لهذا الناقد الذي لم أعرفه : « افتحني واصدق أيها الشاتم » .

زكي طليمات

المدير الفني لفرقة المسرح
ومدير معهد فن التمثيل العربي

٤ – الاستدراك

الامتاع والمؤانسة ، الجزء الثالث للتوحيدي

ضبطه وصححه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ، ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

– ٢ –*

ص ١١١ س ٢٠ « فقد يظن أنّ النفس متى لم تكن . . . أنها لا تكون أبداً . . . » بفتح همزة « أن » الثانية ، والصواب كسرها فتكون « إنها » لأنّ الخبر جملة لا مفرد مؤوّل ولا يجوز جعل خبر « أنّ » المفتوحة مصدراً مؤوّلاً من « أن » المفتوحة نفسها وما بعدها كما ورد في الكتاب .

ص ١١٦ س ١٠ « طوناه عند علمها أن تكون » وفي الحاشية أن الأصل «علمانها» وأنه تحريف . قلنا بصورة الكلمة تدل على أن أصلها الحرف «علمنا بها» فما الداعي إلى الإغراب ؟

ص ١١٩ س ٩ « مداجاةً في العلم وخيانة للحكمة وجناية على المتنصح » بنصب المصادر الثلاثة . ولا أرى وجهاً له ، وإنما المداجاة خبر لمبتدأ متقدم هو « إدخال » ، فتكون الجملة « وإدخال العربي . . مداجاة » ؛ وطبعه في الرفع خيانة وجناية .

ص ١٢٦ س ٢–٣ « ليس في بضائع أصحابنا الذين حولي من يُدرك هذه المعاني . . . فكيف من يفرّج في شرحها وتهذيبها إليه » وقال الناشران في الحاشية : « الظاهر أن (من) زائدة » . وليس هذا عندي بالظاهر لأنّ حذف « مَن » يخلّ بالعبارة ويغير المعنى المُراد . فإنّ القائل في وجود المدرك للمعاني وفي عليه نفي وجود الشارح وإنْ كان التعبير استفهامياً ، ضمّنه قال : « ليس فيهم من يدركها فضلاً عمن يشرحها ويهذبها » ، وحذفُ «من» يجعل العبارة غَلَطاً .

ص ١٣٤ س ١٤ « والقواعد تسيخُ » بالخاء المعجمة . والصواب « تسيخ » بإلغاء المعجمة أي تغور وتغوص في الأرض ، ومثله « تسوخ وتشوخ »

ص ١٤٨ س ١٣ « وليس للإنسان عنها مرتحل » . قلت المشهور في كلام العرب « مَزْحَل » كقول الشاعر « وإن لم يكن عن شفرة السيف مَزْحَل » وهو اسم مكان من « زَحَل »

* راجع مقتطف مايو الماضي باب التعريف والتنقيب

أي تنحى وابتعد .

ص ١٤٩ س ٣ « فقبل أن لَتيتُ اللك أفصح له الذي كان مني مشرفاً عليّ » وفي الحاشية أنّ في الأصل ما صورته : « ما أفصح » بالنفي وأنّ « ما » زيادة من الناسخ . وهذا غير صحيح لأن المعنى يكون به معكوساً ويدلّ على أنّ الشرف لم يفصح لعقد الدولة أنه كان مشرفاً منشرفاً إلى سماع الجواب ويقول : « هات الجواب عمّا نَفَذت فيه ... أنت حُمّلتَ الرسالة وأطالب غيرك بالجواب » ؟ !

ووردت « نَفَّذت » المذكورة في النقدة السابقة على وزن « خَرَّجْتَ » . وهذا غلط في الضبط ، والصواب تشديد الفاء وبناؤه للمجهول ، أو « أنفذت » فانهم كانوا يقولون « نفذته وأنفذته في رسالة تنفيذاً وانفاذاً » أي أرسلته وبعثته ، أمّا « نفذ فلان القوم » أي تجاوزهم » فلا يصحّ هنا — كما هو واضح — لأنّ الرسول أرسله غيرهُ ولم ينفذ هو بنفسه .

ص ١٦٧ س ١ « روى عمر بن صيرة ... إلى حُرام بن شنير بخاتم له فضة — وقد زوج — فعقد عليه حرام سيراً » . فابت شعري من كان قد زوّج وما سرّ التحريض الوارد في الخبر ؟ إنّ هذا تحريف غريب والأصل « فيروزج » و« فصهُ » محرّف إلى « قد زوج » وفصة ، والصواب « روى ... بخاتم له فصّهُ فيروزج فعقد ... » اتخذ الفيروزج معراضاً للزرقة للكروهة عند العرب .

ص ١٧٦ س ٨ « الذي أتى به ابن صيرة الفزاري فأمر بصلبه » بنصب « ابن » . والصواب رفعه لأنه نائب فاعل .

ص ١٧٨ س ٦ « فلم يَحر إليه جواباً » بفتح ياء « يحر » . والصواب ضمّها ، يقال : « ما أسار ولم يُحر جواباً »

ص ١٧٩ س ٧ « فيكفي مؤونتي » . وهو غلط صوابه : « فيكفى مبنيًا للمجهول ثلاثيًا » وقد وردّ في الصفحة بعينها « س ١١ » : فيكفى مؤونتهم . والأول لا يعضده القياس ولا يؤيده السماع ، لأن الاكتفاء اعتمال بالنفس و « يكفى » عمل لغير الانسان للكفيّ وهو المراد لدلالته على المعونة .

ص ١٧٨ س ١٦ قول حسّان بن ثابت :

أنأس تهلك الأحساب فيهم ... يرون النيس يعدلهُ الطبيب

ولا أرى نسبة بين النيس والطبيب وهلاك الأحساب ، ولو جاز الاستغراب لقيل على الأقلّ « الجنيب » وهو الفرس المجنوب . وأرى أن الأصل : « يعدلهُ الحسيب » أي يسوّون بين النيس والرجل الحسيب ، وهو إيضاح لقوله : « تهلك الأحساب فيهم » .

ص ١٨١ س ٨ « وينصامم عن العوراء » بفك الادغام في « ينصامّ » وهو غلط والصواب « يتصامّ » بالادغام لوجوبه ولم يشذّ من القاعدة إلاّ قولهم « تجافن » في التمردون الشر.

ص ١٨٤ س ١٢ « ومر جرير بالأخوص وهو يفسق بامرأة وينشد » . وهذا النسق غال لا يجري بصورته في أسواء الأمم أخلاقاً فكيف العرب في عصر الاسلام (وفي « مرّ » إشارة إلى أن الحادث جرى في الطريق)؟ والصواب : « وهو يشبب بامرأة » ومصدره التشبيب ، ويوضحه قوله « وينشد » .

ص ١٨٦ س ١ « إنّ هذا الباب مختلف فيه ولا سبيل إلى رفعه » . والصحيح « إلى دفعه » أي دفع الاختلاف ، وقد تقدم في الكتاب (ج ١ ص ٧٣) : « مما لا سبيل إلى دفعه » .

ص ١٩٠ س ١٤ « هذا ينبغي أن تعمله بقلبك ولا تدع الله به » . والصواب « ولا تدعوّ » بالنصب لا بالجزم ، معطوفاً على المنصوب « تعمله » . ولا يجوز عطف فعل طلبي بالأمر والنهي بحرف العطف (الواو) على فعل خبري مثل « تعمله » فلا يقال « خذ تأخذه ولا تبعه » أو « تأخذه وبعه » .

ص ١٩٧ س ٢ « الجنة إذاً أولى من الحمام إذ قيل بئس البيت الحمام » . والظاهر أن الأصل « أولى (بالذم) من الحمام » لأن وجه الأولوية غير مذكور في العبارة .

ص ٢٠٠ س ١٤ « وحدثني أن امرأة تظلمت » . ولا مرجع لفاعل « حدثني » في الإخبار ، ولعل الأصل « حُدِّثتُ » مبنيًا للمجهول .

ص ٢٠٢ س ٦ « وتعلم الحاضر بالتعارف والمشاهدة وحال الحس » أي النفس . وفي الحاشية أن التعارف وردت هذه الصورة ولا معنى لها . قلت : وكيف لا يكون له معنى وهو مبالغة من المعرفة والتعرف كالتباعد والتقارب والتعالم والتسامي والتعالي في المبالغة من البعد والقرب والسمو والعلو والعلم ، ثم إن المشاهدة والاحساس يجعلان تعارفاً بين الشيء الحاضر والنفس ، فهو على الوجهين صحيح .

ص ٢٠٦ س ٥ « وليس لهم (عليها) معبر للخوف منهم » . ولا داعي إلى إقحام « عليها » في الكلام ، إذ لم يكن بد من الايضاح الواجب إقحام « بها » لأنه يقال « عبّره كذا تعبيراً وعبّره به » على لغة يدعي اللغويون أنها ضعيفة وإن كان هذا الادعاء مخالفاً لطبيعة الكلام لأنّ الحذف والايصال تخفيف للعبارة ، والتعدي الطبيعي في الفعل لا يكون إلاّ إلى مفعول واحد .

ص ٢٠٨ س ٤ « وطرف عازم » وفي الحاشية أن لفظ « عازم » وردت بهذه الهيئة ولعلها تحريف إذ لم يظهر للناشر معنى وصف الطرف بالعزم . قلت : الصواب « طرف ظلوم »

بالراء من العرامة وهي الشدة ومنه قول ابن أبي ربيعة : « ولي نظر لولا التحرّج عارم »
ص ٢٠٩ س ٢ « يتلق ما أعيا من ذلك بالي » وفي الحاشية أن الأصل « بالكي » وأنه تحريف لا معنى له . قلت : لا بل هو الصواب ، وهو مأخوذ من قولهم في المثل « آخر الدواء الكي »
ص ٢١٣ س ١٣ « كما يطرب سامع الغناء على الشبابير » وفي الحاشية أن الأصل هو « الستائر » لا الشبابير وأنه تحريف استوجب هذا التصحيح . وهذا القول غير سديد لأنّ كلة « الستائر » اصطلاح على الغناء في تلك العصور التي قيلت فيها الكلمة وقبلها ، ووُصف ناس بأنهم من أصحاب الستائر أي ذوي جواد يغنين خلف الستائر .
ص ٢١٤ س ١٣ « بين حيطة وورطة » بفتح الحاء من حيطة . والصواب « كسرها » لأنها في الأصل مصدر هيئة ثم صارت اسم مصدر كما هو مألوف في لغة العرب ولو كانت الحاء مفتوحة لقيل « حوطة » أو « حاطة » كالعودة والعادة والقولة والقالة ، فالعين واو .
ص ٢١٨ س ١٠ « فإذا نقب لطفٌ دَمِي الأطل » . فليت شعري ما الأطل ؟ إنه اسم تفضيل من « ضَنّ » أي بقي ومكث ولا محلّ له هنا . والصواب « الإطلُ » على وزن شِبر وهو لحم باطن الخف فإذا نقب الخف دَمِي ذلك اللحم .
ص ٢٢٠ س ٦ « لما يدخل هذا الوارد ويدنون طرف البساط تنثر رأسه » . و « لما » لا تدخل على المضارع من الأفعال وهي ظرف للزمن الماضي فكان الفعل الماضي بزمنه وصورته أحق بها من غيره ، ومن المستبعد أن يستعملها أبو حيان بخلاف ما ورد في لغة العرب ، وقد وردت على هذه الصورة الفصيحة في شعر شهاب الدين الخيمي المتوفى سنة ٦٨٥هـ قال :

لكن ينازع شوقي ثارةً أدبي فأطلب الوصل لما يضعف الأدب [1]

فلعلّ الأصل : « طالما يدخل » أو « حينما » أو « عند ما » على لغة ضعيفة أوجه من وضع « لما » كذلك .
ص ٢٢١ س ١٤ « ومن الجالس فوق مشرعة مكان الروايا » . والذي جلناه من خطط بغداد أنها « مشرعة الروايا » لا « مشرعة مكان الروايا » [2] ، والظاهر لنا أنّ في الأصل « كان » ملصقة فزحلقت وصارت « مكان » أعني أنّ الأصل « من الجالس — كان — فوق مشرعة الروايا » .
ص ٢٢٦ س ١ « ولم أظلم معنى بالتحريف ولا ملت فيه إلى التحوير » ، وفي الحاشية أنّ

(١) ابن الفرات في تاريخه (ج ٨ ص ٤٢)
(٢) أصول التاريخ والأدب ، من محرراتنا الخطية (ج ١٩ ص ١٦١) وكامل المبرد (ج ٩ ص ٢٢٣) و (المنتظم ج ٨ ص ٢٣٢)

التحرير في النسخة التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هو على صورة « التجرير » وأنه تحريف . قلت : وما التحرير إلا التبييض ولا محل لها ، فالصواب « التجرّز » أي الترخص في التعبير والتسامح فيه ومنه قول المؤلف في الجزء نفسه ص ١١٠ س ١٥ : « إلا أن تجوز إفادتها للقابل منها استفادةً لها وفي هذا تجوز ظاهر » ، ولو جاز أن يكون مصحفاً عن غير المجوز لكان « التحويف » مصدر « حوّف » أي مال إلى الخفة .

* * *

ومن الغلط في أعلام الناس :

ص٧ س ٨ « رأيت أبا خليفة الفضل بن الحباب » . والذي حفظناه أنه « الفضل » وقد راجعنا ما وصلت اليه يدنا من الكتب في الاسكندرية[1] فتأكد لنا أنه أبو خليفة الفضل بن الحباب ابن محمد بن شعيب بن صخر الجمحي القاضي السجاع وهو ابن أخت محمد بن سلام الجمحي مؤلف طبقات الشعراء ، كان من رواة الأخبار والآثار والأشعار والآداب والأنساب وتوفي بالبصرة سنة « ٣٠٥ » هـ[2] .

ص ١٣ س ٨ « قال أبو الحسن أخبرني الثوري عن أبي عبيدة » وفي الحاشية أن هذا « الثوري » ورد في نسخة ب بصورة « النوزي » وأن كليهما معروف . قلت : كونهما معروفين لا يكفي في تحقيق الاسم ، فان سفيان الثوري لم يرو عن أبي عبيدة وإنما روى عنه النوزي .

ص ٧٥ س ٩ « على النائدة أبو علي بن مقلة وأبو عبد الله اليزيدي . . وكان اليزيدي . . » ولم يشتهر يزيدي في ذلك العصر فضلاً عن أن يؤاكل ابن مقلة الوزير فالصواب « أبو عبدالله البريدي » وهو الأمير المشهور في تاريخ ذلك العصر وورد في ص ٢٢٢ « ابن البريدي » .

ص ٧٦ س ١ « وحدثني ابن صيمون الصوفي » . والمشهور « ابن سمعون الصوفي » وهو الذي ذكره الحريري في المقامات وهو محمد بن أحمد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ٨٨ و ص ١٩٨) وابن خلكان في الوفيات وغيرهم .

ص ١٠٠ س ١٧ « لابي الحسين السبتي » وفي الحاشية قال الشارحان « في ب الليثي » . وهذا لا يكفي فانه لا يجوز أن يكون بالنسبتين معاً صحيحاً ، فالصواب « أبو الحسن التيمي » لا أبو الحسين الليثي ، واسمه أحمد بن علي ، وترجمته في معجم الأدباء (ج ١ ص ٢٣٣) من طبعة مرغليوث وغيره من كتب التراجم والأدب .

---

(١) بعث الينا الاستاذ معطي جواد الدكتور في الآداب من الربوتن والاستاذ بدار للمدين العالم في بغداد بدأ الاستدراك وهو نزيل الاسكندرية ، في الصيف الماضي .

(٢) الصفدي في « نكت الهميان في نكت العميان » ص ٢٢٩

ص ١٥٣ س ٤٠٣ « ومحمد بن صالح بن هيبان » . والذي عندي أنه « ابن أم هيبان » وهو الذي سأل المتنبي عن سبب لقبه كما في الجزء الثامن من « نشوار المحاضرة » وكان من القضاة الهاشميين ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد (ج ٥ ص ٣٢٦) وذكره مسكويه في التجارب (ج ٥ ص ٤ من ٢٩) وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ١٠٢) واشتهر ابنه علي بابن أم هيبان أيضاً كما في تاريخ الخطيب (ج ٢ ص ٩٩) .

ص ١٥٣ أيضاً س ٧ « وابن رُباط صيغ السكرخ » . رُباط جاء على وزن غُراب وفي ص ١٩٧ س ٣ « ابن ربّاط » على وزن شداد ، وفي هذا تناقض يجب دفعُهُ .

ص ١٩٦ س ٨ « قال ابن عثمان الآدمي » . الآدمي منسوب إلى آدم من الآدمين ، والمشهور « الأدمي » بلا مدّة وهي الجلود المدبوغة والنسبة لجرفة .

ص ٢١٥ س ٦ « هذا التركي ساسنكر ، تهيأ بظله » وفي الحاشية أنّ الشارحين لم يجدا هذا الاسم في معجمات الأعلام التركية التي راجعاها والذي وجداه سنجر . قلت : المراجعة لا تكفي في وجدان الاسم ومعرفته . لأن المسألة تاريخية لا لغوية حتى تكفي فيها سورة اللفظ ، فصاحب الاسم المحرّف « ساسنكر » هو « سبكتكين » الحاجب غلام معز الدولة ، وذكره مستفيض في كتب التاريخ كالكامل وتجارب الأمم وكتب الأدب مثل الفرج بعد الشدة للتنوخي وغيره .

ص ٢٢٢ س ٤ « ولدوي مليحا في هذا الباب نفخ » وفي الحاشية أنّ هذا ورد في نسخة ب ولم يتبين الشارحان من هم ذوو مليحا . قلت : هو مكيحا الجاثليق كان ببغداد وأخباره في « كتاب بطارقة كرسي المشرق » لماري بن سليمان ، وذووه : أصحابه من النصارى .

ص ٢٢٨ س ٩ « سرحني رسولاً ... أو إلى أبي السؤل الكردي » وفي الحاشية أن أبا السؤل ورد بهذه الصورة ولم يهتديا إلى وجه الصواب فيه . قلت : إنما هو أبو الشوك الكردي المشهور في حوادث القرن الرابع للهجرة كما في الكامل وتجارب الأمم وغيرهما .

* * *

هذا ما استطعت التنبيه عليه بعد قراءة سريعة والإبانة عنه بعد التأمل والروية ، وهو يسير — كما قلت — بالإضافة إلى هذا الجزء الناخر الذي تدل العناية الفائقة بإخراجه على علم وفضل وتبحر واستفراغ للطاقة وحرص في الحفاظ على تراث الأمة الأدبي . فللأستاذين الناشرين أتم الشكر وأطيب الثناء .

مصطفى جواد

٥ – المسائل

الأديب وحرفته

كما أن الأدب لا وزن له إذا غلَّته القيود سواء أتته من جهة السياسة أو من جهة الاجتماع أو من جهات أخرى، كذلك الأديب لا يصدق إنشاؤه ولا يعظم شانه إلا إذا انطلقت يده فاطمأن قلبه إلى صناعة الكتابة. والأديب أو المنشئ لا بدَّ له من حرفة يحترفها تكون مرتزقه، وذلك لأن الإنشاء لا يدرّ عليه، في غالب الأمر، ما يقيم عيشه ويسدّ حاجته. تلك حال الأديب من الزمن الأول حتى اليوم — تلك حاله في أوربة لهذا العهد، وإن قيل لنا إنّ الأدب هناك سوقه نافقة، وإن زعم زاعم أنّ متعاطيه هناك لا يشكو الضنك بل ربما أثرى. ولا ريب أن تلك حاله أيضاً في بلداننا الناطقات بالعربية. ومطلبي أني أعني الأديب المخلص لفنه، الحابسَ همه على محض الأدب، لا الواغل على أهل تلك الصناعة، ولا المنعطفَ اليها عن هوًى عارٍ، ولا المتخذَها وسيلةً أو آلية.

وللأديب أن ينجو من هذه المشكلة فيعدلَ عن اختيار حرفة يتكسّب بها، قد يكثر معها التصرف والتقلب، وذلك بالانزواء والقناعة بكفاف الرزق والاجتزاء بقسمة القدر، بما يتطرّ له الحين بعد الحين من هنا ومن هنا. فتكون سيرته من سيرة شيخنا أبي العلاء الحبيس. غير أن الزهد والتقشف لا يقدر عليهما إلا الأقلون. وليس لهذا النحو من العيش أن ينتصب قاعدةً يُجرىَ عليها. وللأديب بعد هذا أن يحظى بعطف ملك أو كبير يترّبه ويؤثره ويقدرهُ، فيجري عليه راتباً أو يصله مرة بعد مرة، لوجه الرعاية. على أن هذا الفوز من الحظوة، وإن كان شائعاً في العصور الماضية ولا سيما عند العرب، لنادرٌ حدوثه اليوم. وإن وقع، فلغاية معلومة. ولكنه كثيرُ الحدوث للعالِم، ومن الأدلة على هذا تلك الأموالُ المرصودة للعامل والمخابر والمعاهد ثم للرحلات والتنقيبات والتجارب ... عهدُنا اليوم أوفر انصرافاً إلى حقائق العلم منه إلى رقائق الأدب. وفي هذا عجلة للحسرة، ففي الأدب غذاء وحبور لا تجدهما والله في لظلم الصرف.

• • •

٥ حديث أذاعه الكاتب من « راديو الشرق » ببيروت في ١١/٦/١٩٤٤

هذا ، والحق أن الأديب يشق عليه أن يختار حرفة تباعد فنه وتغاير خطته ، إذ أنه منجذب إلى صناعته ، محوّلٌ اليها سكناته وحركاته ، مشغولٌ بها في يقظته وغفوته . لذلك ترى الأديب في عصرنا هذا قليلا ما يزاول صناعة تحيد عن طريق فنه أو تفلت من سلكه . فهو موزّع بين التدريس والصحافة والتأليف المتعل . وإن خرج منها فهو في أكثر الحال موظف سواء عليه أساريت وظيفته هواه الأدبي أم جانبته .

وفي رأيي أن في تلك الحرف الثلاث ثم في التوظف ما قد يضر بصناعة الأدب وينقص من ثقافته :

أما التدريس ، ضدنا على وجه التخصيص ، فيحصر الذهن في الكلام المعاد سنة بعد سنة . وأخوف من هذا أنه يفرق من ممارسة في الكتب والكراريس ، ويلزمه لوناً أو لونين من التفكير ، ويدفعه إلى الاستبحار في اللون أو اللونين ، ويلثته قليلاً أو كثيراً عن سواهما ، فيحط الادراك من جهة ويقبضه من جهة . ثم إن الكراريس والكتب تيسر التلقف والاقتطاف من غير إعمال الروية . وعلى هذا نبه قديماً إمامنا الجاحظ ، وهو يلهو في إحدى رسائله — ولعلها « التربيع والتدوير » — بالسَّحْنِي ، وكأنه يريد ما يقال له في الفرنسية livresque والانجليزية bookish ، وهو المتلقي معارفه من بطون المجلدات . هذا ، والتحقيق أن تصفح وجوه الحياة كما يرى الفيلسوف الفرنسي ديكارت Descartes وتدبر مطاوي النفس كما يرى المفكر الألماني نيتشه Nietzsche إنما هما مصدرا الفهم الأعلى والحس الأوفر . ثم إن تكرار الحديث سنة بعد سنة ، أو تناول الموضوع الواحد موسماً بعد موسم ، يولد في الذهن مثل الركود والفتور ، على حين الأدب كما أظنك تعلم : وتّبان وفَوران .

وليس خطر التدريس على صناعة الأدب بشيء إلى جنب خطر الصحافة . ولا يزال الجمهور يخلط الأدب بالصحافة ، بل إنك ترى صحافيًّا ينزل نفسه منزلة الأديب لأنه يرفع الفاعل وينصب المجرور — وقد لا يرفع ولا ينصب ! — ولست بمعارض هنا لهذا الضرب من الصحافيين المقتحمين مسالك الأدب المنتحلين اسمه على غير استبصار ، ولكني أريد الأديب الذي يشتغل بالصحافة ويرضى بها حرفة له . والكلام على سوء أثر الصحافة في الأدب المحض يطول ، فحسبي الاشارة إلى أمرين :

الأول أن الصحافة أساليب ، من ينتهجها طويلاً يجر عليها في طريق الأدب من حيث لا يحتسب . ومن هذه الأساليب العناية بالحادث فرق العناية بما خلف الحادث من الأسباب

الدقيقة وما بعده من السيات الجلية : فلا فوض على البعيد ولا تهيل عند الخطير . بل الهم منصرف إلى الحاضر تظاهر ، وليس الحاضر بالنقطة الثابتة حتى يعظم شأنه ولا بالجوهر القائم حتى تعتمد حاله . وأما الأمر الثاني فالسرعة التي يضطر اليها الصحافي إذا كتب : فالخبر أو المقال يجب أن ينشر اليوم أو في غد ، والقارىء منتظر ملحّ . فالصحافي لا يتسع له مجال التبصر ، ولا تدري الصحف يقوى على ما لطف مرماه وبعد مغزاه .

هذا ، ومن أثر الأمر الأول — وهو الوقوف عند الحاضر الظاهر — أن الأديب يعتاد الكتابة الهينة القريبة ، فلا تشغله علل الحوادث ولا تزعجه معاير الأمور . وأما الانسانية فتنزل عنده منزلة القافلة التي أناخت وسط الصحراء واطمأنت لهمدت ، لا القافلة التي تقطع المراحل وتتوثّب فتشقى ثم تنعم ، ويأخذها السراب ثم تنكشف لها البئر ، وتدنو من الهلاك ثم ينجيها الأمل الرفاف .

ومن أثر الأمر الثاني — وهو التسرع في الكتابة — أن الأديب متى ينشئ ينصرف عن التأمل والتفهم في باب التفكير ويهمل التهذيب والتشذيب في باب التعبير — وما أعرف آفة أضرّ بالأدب من التسرّع ... الأدب الحقّ ولادة مُعْسِرة — أريد جهة التفكير لا جهة الأداء .

ثم يلحق بهذين الأثرين أثر ثالث لا بدّ لي من ذكره خطفاً . وهو اعتراف الأديب الصحافي إلى الجدل والمحك ، وذلك لأن حرفته تسوقه إلى الدفاع والهجوم من هوًى أو تجاوب ، فليست الحقيقة التي تجذبه وتتلقاه ، ولكن الغلبة والانتصار وليس في هذا الأسلوب ما يُغني أو يُثري .

* * *

وأما حرفة التأليف فهي أكثر الأدباء أنها ألبق بهم وأنفع . والحقّ أنها بضد ذلك أو بخلافه . ودعني أمثّل لك بدلاً من أن أحكم على سبيل التجريد في الكلام . وليكن من الذي نُخاره ما يجري حولك الآن في ميدان النشر . فهذه دور الطباعة همُّها إخراج الرسائل والكتب إلى القراء إخراجاً متواصلاً متعاقباً . فهي لذلك تقصد الأدباء ، وهي تزين المحررين منهم المشهورين رغبةً في الرواج وطمعاً في الكسب . وينشأ عن ذلك أن هؤلاء الأدباء — إلى جنب سائر أعمالهم ، مثل إنشاء المقالات وإلقاء المحاضرات — ملزَمون بدفع كتاب أو أكثر من كتاب في السنة الواحدة . فمن أين

الوقتُ الذي يشرَعب فيه الموضوع ، وتنضج الفكرة ، ويستوي التأليف ، ويستقيم الأداء ؟ وقد وقع بعض هذه الكتب بين يدي في الستة التي نحن فيها ، وهي التي نشطتْ فيها المطابع فتواردت تراثُها . فوجدتُ تلك الكتب — في جملتها — فجةً أو ذاوية ، وعلى أكثرها طابَع الارتجال . ولا يكاد يكون فيها كتاب يغذو الضمير أو يثير الفكر أو يشق أفقاً أو يرفع حجاباً . ذلك أدب رخيص أو كالرخيص . وشرّ ما في الطريقة أن الناشر يقترح الموضوع على الكاتب ، أو يقيده في سلسلة معيَّنة ، كأنما الأديب رَهنٌ للتاجر أو طوعُ السوق .

بقيت حرفة الوظف ، وهي خارجة عن الصناعة كما قدَّمتُ لك ، وضررُها أنها كثيراً ما تولد في النفس فتور الذهن وقعود الهمة ، وتطرد من الطبع فضيلةَ الحرّ وثورةَ الشامخ . فإن استطاع الوظف أن يجاهد ما يتولد في نفسه ، ويستردّ ما يُطرَد من طبعه ، شرفته مكنته من معالجة الأدب في تفلغل وروية وتمهل واستقلال .

وليست تلك الحرَفُ كلَّ ما يتقدّم بين يدي الأديب ، فهنالك حرَفٌ أجنبية عن دائرة القلم والمداد . هنالك الحرف اليدوية مثلاً . وقد أومى بالاقبال عليها أمثالَ الفيلسوف الفرنسي رينان Renan وتولستوي الروسي . وربما كانت فئة من أدباء العرب يتكسبون ، ولا سيما الشعراء : كان فيهم البزاز والخياط والرفاء والسقاء وغير ذلك ، وهم في سلَّم القيم الانسانية أرفع مرتبة وأجل شأناً من الأدباء الطفيليين ، أولئك الذين رَضُوا بالمديح تارةً والهجاء أخرى ، مرتزِقاً . فأقبح بهم ، وإن كان فيهم أضراب الأحطل وبشار ، وما يحزن النفس أنّ هؤلاء الجناة على جوهر الأدب أدناباً في العهد الذي كُتب لنا أن نعيش فيه ، وقد توافر فيه التملّقُ والتجريس .

* * *

وبعدُ ، فلم أعرض هنا إلا للحرف التي يختارها أدباؤنا . فأشرت إلى ما فيها من النواحي التي تضر بالإنشاء ، ولعلي لم أتحكم ولم أجازف . وإنما غرضي أن أنبه وأن أبين ، وأما هي فنصون البهاء الذي في الأدب وحوط الجلال الذي يلفه .

بشر فارسي

باب الأخبار العلمية

ثمرات الحرب الحالية

في العلوم والفنون

قد يكون غير ضروري كشف سبب داء السرطان ، ما دام علاجه ليس ميسوراً . ولكن قد تبين من المباحث التي تمت في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٢ أن بعض أنواع المواد الكيميائية تحول دون قيام خلايا سرطان الثدي بوظائفها . بيد أنها لا تستطيع مناوأة أية خلية من الخلايا السليمة . ومن المعلوم أن العلماء لم ينجحوا في اختراع أي علاج كيميائي لذلك الداء العُضال ، فإذا أسفر هذا البحث (الذي ما زال في طور أنابيب الاختبار في المعامل الكيميائية) عن نتيجة مرضية ، كان بلا شك دليلاً على القضاء على ذلك الداء العياء .

وما فتئت الڤيتامينات ذات تأثير خطير في علاج أوصاب الناس . وأحدث ما ظفر به العلماء منها في هذا الصدد هو ڤيتامين ب ، B.1 وهو هيدروكلوريد الثيامين الذي يزيل الألم البرح من أسناخ الأسنان المؤلمة في الفك عند ما تخلع منه الأسنان ، إذ تحقن هاتيك الأسناخ بذلك الڤيتامين فيذهب عنها الألم في ثلثي الإصابات في نحو نصف ساعة .

وفي أكداس الدريس قد يوجد العلاج المنقذ للبشر من تجمد الدم في عروقهم وغير ذلك من المضاعفات لتصلب الشرايين ، لأن نعنفن النيل sweet clover يولد مادة كيميائية تسمى ديكومارين Dicoumarin تنقص من قوة تجمد الدم . وهذه خاصية مفيدة في علاج الحالات التي مدارها تجمد الدم . وقد تم تركيب هذه المادة الكيميائية وهي رخيصة . ويستطاع إعطاء المريض إياها من طريق الفم وحقناً بالحقنة تحت الجلد . ويتوقع العلماء نجاح هذا الدواء لأن الخبراء قد شاهدوا أن المواشي التي تعلف بالنفل الذي دب فيه العفن كثيراً ما تموت من رضوض خفيفة يتولد منها نزيف قتال مصدره عجز الدم عن التجمد . وإليك تاريخ الديكومارين :

كان الديكومارين يستخرج في بدء الأمر من النفل المتعفن ثم شرعت جامعة ويسكونسن الأميركية في تركيبه بالوسائل الكيميائية . وترى العلماء أنه سيصبح عاملاً جديداً خطير الشأن في علاج تخثر الدم في العروق إذ يقيها منه . وهذه الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تنتاب المريض عقب الجراحات . وقد أعلن هذا الاختراع ثلاثة أفواج من تلك

الباحثين المحققين وذلك في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الأميركية كما جاء في جريدة التيمز النيويوركية بقلم مندوبها ل. لورنس. ولا غرو فتكون الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تساور الجراحة سواء أبقيت في مكان تولدها فتعرف باسم (ثرومبوسة الدم) أم انتقلت من ملشئها إلى عرق أبعد وأصغر مما نشأت فيه حيث تعوق الدورة الدموية فتحدث حينئذ حالة تسمى السدادة الشريانية.

ما الهيبارين؟

أما الهيبارين Heparin فهو دواء موجود الآن في الصيدليات المصرية ومخازن الأدوية وقد استعمله صديقنا الدكتور رمسيس جرجس الخبير الفني في لجنتي الطب والكيمياء في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة، وذلك في علاج أحد أقطاب الوفد المصري، فشفي. ويستخرج الهيبارين من كبد الحصان ويقاوم تجمد الدم أيضاً، ولكنه غالي الثمن ولا بدّ من إدخاله في المرق حقناً. وهذا العمل يتطلب دقة الملاحظة.

مجاري الكهيربات تفوق موجات الضوء

وكان التقدم العلمي الذي تم في الميادين الأخرى، فائقاً أيضاً ونافعاً جداً في الظروف الحالية الطارئة. ومثال ذلك أن طول موجات الضوء المرئي، كانت تعدّ منذ سنوات، مقياساً لحجم المرئيات التي تستطيع العيون البشرية رؤيتها. ثم تبين أن مجاري الكهيربات، وهي جزيئات المادة من جهة، وجوهر الكهربية من جهة أخرى، تكاد تقوم مقام الضوء، الذي تكون موجاته أقصر منها جداً، فيلجأ بها توسيع نطاق المكتشفات الدقيقة الجوية وتصوير الأشياء التي لا يمكن إبصارها بالمجاهر العصرية ذات العدسات المصطلح عليها، وإن تكن من أجود الأنواع. فظهر أن الجراثيم ذات أشكال تختلف عما كان معروفاً وذلك حينما تمّ تكبير صور أقطارها بالمجهر الكهربي من ٢٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ مرة. ثم ثبت أيضاً أن المواد الكيميائية الشائعة الاستعمال تختلف كل الاختلاف عما كان يزعم الناس. وأحدث ما أضيف من التحسينات إلى ذلك المجهار الكهربي، جهاز للإضاءة سوف يتيح نقل الصورة التي تصور بالمجهار المشار إليه، وذلك بالراديو المصور. غير أن الزمن الحالي غير صالح للانتفاع بهذا التحسين. ويؤلف المجهار الكهربي للكشاف المشار إليه من مجهار كهربي وراديو مصور وراديو مقلّد.

المجهار الكهربي

وبهذا المجهار الجديد يتمكن العلماء من دراسة تركيب الذرات في الأجسام غير

الشفافة ، مثل الفلزات ، درساً محكماً لم يحلم به إنسان . ويتيسر استعمال المجهار الكهربي أيضاً في تقصي الأشياء الدقيقة وتحديد بنائها الذري . وبهذا التعديل تغدو الصورة التي تلقط به ليست ممثلة لهيئة الجسم التي تبدو للناظر (إذا استطاع رؤية هاتيك الأشياء الدقيقة) بل تكون في الواقع رسماً يرسمهُ لشعع النور تشععاً يتمكن به علماء الطبيعة من إدراك كيفية ترتيب الذرات في الجزيئات وفي خلال بضع دقائق يستطاع التقاط صورة من هذا القبيل ثم استخراج نموذج لها بلشعع النور عنها فتأتي بمنافع جليلة في كثير

[illegible] الكهربي هو إنتاج [illegible] الأشياء مجسَّمة . [illegible] العلمية هو عمل صورتين [illegible] تختلف كل منهما عن الأخرى [illegible] وتتاح مساعدة حاستي [illegible] الزوجتين بوساطة المجساد .

جهاز الاشعة السينية

بقدرة مليون فولط

[illegible] الكهربيات الفائقة السرعة [illegible] جداً ، وذلك [illegible] يجري في معامل من أجهزة أشعة [illegible] الة خاصة أطلق عليها اسم [illegible] تحريك الكهرب) بقذف [illegible] بسرعة فائقة تمكن ذلك الجهاز الضخم حينما يدور من توليد أشعة سينية تبلغ ٢٠ مليون فولط . هذا والعمل دائر الآن في وضع رسوم جهاز جديد لتوليد أشعة سينية تبلغ مائة مليون فولط .

وقد استوجب تركيب الجهاز السابق الذكر ، تشييد مبنى من الآجر المسلح ، بلغت ثخانة حيطانه ثلاث أقدام ، وذلك لينسب فيه هذا الجهاز الضخم القوي ، صوناً للناس من ضرره . وهو يستعمل لفحص ألواح المعدات الحربية . والأشعة السينية الفائقة الطاقة التي سوف يولدها الجهاز المركب والتي تبلغ طاقتها مائة مليون فولط ستكون ذات موجة طولها يشبه أصغر موجات الأشعة الكونية . وهذا مما يجعل العلماء يأملون كشف أشياء [illegible] خاصة ببناء الكون يمكن تحقيقها حينما تتاح لهم فرصة تذليل تلك الأشعة النزقة جداً .

الأورانيوم رقم ٢٣٥

وما زال في ملي الكامل ، الذي يلازم دائماً المباحث الحربية ، خبر أي تقدم يتقدمه العلماء في استخلاص الطاقة من ذرة الأورانيوم بتهشيمها . فلكن رقمت إلى العلماء بشرى عظيمة قد [illegible] آنفاً ، وهي تحطيم ذرة نظير الأورانيوم رقم ٢٣٥ (التي هي [illegible] العالم في طاقة الذرة في هذه الأرض) .

مصدر هذا الحادث هالة الشمس ، وهي

مجرمة [illegible] الضوء الذي تشعه بالتحديد [illegible] الكهربي الذي يتوهجه [illegible] ٢٣٥ الذي يتميز بقوته هائلة مشفوعاً بالعمل الباهر الخاص بالكشف عن طريقة فصل نوعي ذرات الأورانيوم نظراً لاهتداء بعض العلماء كونه عنصراً لإطلاق طاقة الذرة.

ويؤكد هذا الطبيعة أن رطلاً واحداً من الأورانيوم الذي يعادل ثقل الهيدروجين ٢٣٥ [illegible] منه طاقة تساوي ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف برميل من البترول أو خمسة ملايين رطل من الفحم.

[illegible] مكتشفو [illegible] الأورانيوم [illegible] أمامه خطوة واحدة حتى يتمكن الانسان من الانتفاع بها وهي تحسين وسائل استخراج ذلك الأورانيوم من تبره إذ لا يباح الآن استخراجه إلا بتقدير [illegible] جداً على حين أن تبره يوجد منه مقادير كبيرة.

ويرى بعض العلماء أيضاً أن هذا الاكتشاف قد يفضي إلى إحداث انقلاب في العالم إذ أنه يبشر بجعل جميع المصادر الأخرى المولدة للطاقة، لا تزيد على لعبات للأطفال وذلك عند موازنتها به. ولاغرو فهم يقولون إن مقداراً من الأورانيوم رقم ٢٣٥ يتفاوت بين خمسة أرطال وعشرة أرطال، يستطيع تسيير احدى قاطرات المحيط زمناً غير محدود.

ويحسبان هذه المادة قادرة [illegible] منها ضغطاً يعدل ما [illegible] التربنتين وتوليدن مليون مرة [illegible] في حجم كف اليد فكمن قوة [illegible] المحيط الهادي. ويمثل هذا المقدار [illegible] إحدى الطائرات الطيران حول العالم [illegible] تبين أن الأورانيوم ٢٣٥ يمكن [illegible] طاقته بسهولة مدهشة إذ يوضع في [illegible] يسلط عليه مجرى مستمر من [illegible] وكلما ضوعف إزاحة [illegible] ساخناً حتى أنه [illegible] بأي مادة [illegible]

استخراج المغنيزيوم من البحر

واستخراج المغنيزيوم من البحر، وهي معدن أخف وزناً من الالومينيوم وواسع جداً في صناعة الطائرات، هو من أعظم الأعمال الكيميائية الحديثة التي تساعد الدول المتحالفة في مجهوداتها الحربية، وكان هذا الفلز يستخرج من أملاح آبار المياه الملحة في متشيجان ولكن الكيميائيين حوّلوا جهودهم صوب اليم فاستخرجوا منه مقادير أكبر مما كانوا يستنبطون من مياه هاتيك الآبار إذ تبين لهم أن في كل ميل مكعب من مياه البحر زهاء ٧٠٠,٠٠٠ طن من المغنيزيوم فأدركوا أن المحيط معين للمغنيزيوم لا ينضب.

عوض جندي

رداء غير منظور

يقي من البلل

يمكن العلماء أخيراً من اختراع رداء غير منظور يقي من البلل ، وهذا الرداء يمكن تكوينه على الأقمشة أو الورق أو غيرهما من المواد ، عن طريق تعريض تلك المواد لأبخرة كيميائية تتصاعد من مركب جديد ، فتتحول إلى ستر تطرد الماء . ومن أهم منافع هذا الكشف الجديد استخدامه في معالجة العوازل الخشارية في أجهزة الراديو ، لأن تأثيره يفوق نحو تسعة أضعاف تأثير العوازل الشمعية التي تستعمل في الوقت الحالي لطرد الماء ، كما أن مزاياه مستديمة باقية .

*

أما السائل الذي يبلل بخاره تلك المواد ، فإنه سائل راتنجي يتكون من مواد كيميائية مختلفة تتبخر في درجة حرارة أقل من مئة درجة مئوية . وتعرض المواد التي يراد طلاؤها بهذه المادة البخار في حجرة مقفلة خلال دقائق . ثم تخرج المواد من الحجرة وتعالج ، إذا لزم الأمر ، ببخار النوشادر ليتعادل مع الحوامض الآكلة التي قد تتكون عليها أثناء عملية الطلاء . والنتيجة أن تتكون طبقة رقيقة عازلة للماء على سطح المادة (سواء أقماشاً كانت أم ورقاً) ، وهي متناهية في الرقة حتى لا تسطيع العين المجردة أو المجهر الدقيق تبينها . ويستعان على اختبار وجودها بالتحليل الكيميائي . وإذا سقط المطر على سطح مطلي بهذه المادة ، فإنه يكون نقطاً منفصلة بعضها عن بعض لا يتشربها السطح .

*

ومن مزايا تلك المادة أيضاً أنها تستعمل في أدوات المختبرات العلمية . فكثيراً ما يتسبب الماء وبخار الماء في تغشية سطوح أنابيب الاختبار المدرجة ، فتفقد رؤية الأرقام رؤية واضحة . وقد أمكن ملافاة ذلك النقص ، بتعريض هذه الأنابيب إلى بخار السائل الكيميائي المتقدم الذكر ، فسلمت رؤية الأرقام المنقوشة على الأنابيب .

البنسلين أيضاً

أعلنت جامعة أوريزونا (بفونكس) أن البنسلين استخدم بنجاح في قتل سرطان النبات ، وهو مرض فتاك تسبب البكتيريا في انتشاره .

مستقبل القطن الطبيعي

جاء في تقرير لوزارة الزراعة الأميركية أنه سيستعاض من القطن الطبيعيّ في كثير من مستوجات مابعد الحرب بالألسجة الصناعية التي أصابت تقدماً كبيراً في أثناء توسع الانتاج الصناعيّ في زمن الحرب .

وينتظر في الوقت نفسه أن تفتح أسواق جديدة للقطن الطبيعيّ في المناطق الأخرى التي تقوم فيها تجارب لاستخدام القطن الطبيعيّ في صناعة الأجهزة العازلة والعجائن الكيميائية وأنواع معينة من الملابس والألسجة والخامات التي تستخدم في صناعة الألسجة .

وقد نجح استخدام القطن أخيراً كمادة مانعة للماء والحرارة والبرودة ، وبذلك يتسنى استخدامه في الأبنية والسيارات .

وأشار التقرير إلى أن العجائن الكيميائية ستصبح من أهم وجوه استهلاك القطن الذي يستخدم الآن لتغذية العجائن التي تتطلب المرونة والمتانة وخفة الوزن .

سلاح الصاروخ

ليس الصاروخ كشفاً جديداً ، إذ عرفه الصينيون حوالي عام ١٣٠٠ . وقد أجريت في مدفعية الحرب الكبرى الماضية عدة تجارب في استخدام الصاروخ ، ولكن الصلح أبرم قبل أن يصل العلماء إلى نتائج ذات شأن . واستمر البحث زمن السلم ، وخاصة فيما يتعلق بالدفع (أي الدفع إلى الأمام) ، وأجرى العلامة « فرتز أوبل » عدة تجارب على السيارات المسيرة بالصاروخ . أما في هذه الحرب ، فقد أمكن الحصول على نتائج باهرة في هذا الفن .

والصاروخ قذيفة مُسيَّرة بذاتها ، تختلف عن القذائف المدفعية الأخرى في أن قوتها الدافعة تتولد من رد فعل الغازات المحترقة داخلها وهذا هو المبدأ العام لجميع أنواع الصواريخ .

وإليك ملخص طريقة عمل هذه الصواريخ : تُشعل القذيفة الدافعة سواء بالكهربا أو بالفتيل من أجهزة داخل الصاروخ ، فيولد ذلك غازات تتمدد في جميع الاتجاهات موزعة ضغطاً متساوياً . فالغازات الجانبية يتعادل بعضها بعضاً ، أما الغازات التي تتولد من الخلف فإنها تخرج بقوة فتدفع الصاروخ نحو الهدف .

وينتظر لهذا السلاح شأن كبير في الحروب القادمة .

وديع فلسطين

قواعد بسيطة للطعام الصحي

الأول — الإكثار من شرب اللبن وما يصنع منه ويحسن إذا أمكن أن لا يكتفي الانسان بأقل من رطلين من اللبن . فاللبن فضلاً عن كونه كثير المواد الفيتامينية ، فيه مقادير يسيرة جداً من العناصر المعدنية ولكنها على يسرها لازمة للجسم . ثم هو يساعد على إتلاف نوع من الجراثيم الناقمة في الامعاء ، على قول بعض الأطباء ، فيتولد حامض يدعى اللاكتيك وهو الذي يقضي في الامعاء على بعض الجراثيم التي تفسد الأطعمة الخضرية . فاذا أكثرنا من شرب اللبن قلّ تولد المواد المضرة في الأمعاء

الثانية — في الخضر المورقة غذاء يختلف كل الاختلاف عن الغذاء في الخضر الجذرية كالبطاطس والجزر . ومن فوائد الخضر المورقة أنها تيسر حركة الأمعاء . وأهم هذه الخضر الاسباناخ والخس والكرنب والقرنبيط والبصل .

الثالثة — يجب الإكثار من أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة لكي نحصل منها على الفيتامين الذي يقاوم ويقي من المرض الذي كان يصيب البحارة والرحالين .

***

مجموعة فريدة
للصحف الشرقية

إن في بيروت ذخيرة تزيد في ثروتها ، والذخيرة بين يدي فاضل من فضلائها وعالم من علمائها الفيكنت فيليب دي طرازي ، وهي مجموعة للصحف لا نعرف لها أختاً في العالم ، وإن اشتهرت أوربة وأميركة بالتفوق في الجمع للذخائر الثقافة .

وما نظن القارىء يجهل من الفيكنت دي طرازي صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » الكتاب الذي ألفى الترحيب والتقدير ونزل منزلة السفر المعتمد في بابه . انصرف الفيكنت دي طرازي منذ نشأته إلى جمع الكتب والصحف على نحو ما كان يصنع رجالات العرب وعلى نحو ما صنع أحمد تيمور وأحمد زكي هنا ، فاتسقت له مجموعة كتب حافلة في المطبوع والمخطوط ، فألشأ بها « دار الكتب اللبنانية » في بيروت ثم أتحف الدار بأنفس وآثار جمع بعضها إلى بعض فانتظمت في شكل معرض فني . وأما مجموعة الصحف فلا تزال في حوزته .

إن هذه المجموعة لمن الفضائل وبا ليت مصر — وفيها دار الكتب وكلية الآداب ولاسيما معهد الصحافة — أن تكون لها

حافظة ، هي مجموعة تضم الشوارد والغرائب والفرائد . أنشئ صاحبها على إنشائها سنة ١٨٨٧ فراسل الأدباء والصحافيين والمؤلفين بما تقدم من المنشورات ، وكلف من كلف بالتقاط ما انقطع خروجه أو ابتدأ صدوره ، بل وصل إلى أطراف آسية وإفريقية وأوربة فظفر بما نصفه هنا .

المجموعة على قسمين عربي وغير عربي . أما العربي فيضم العدد الأول لكل صحيفة منذ نشأة الصحافة العربية ، وربما ضم عدداً ممتازاً صدر لأمر خاص . وكان المؤلف إن عجز عن الحصول على العدد الأول اقتنى الثاني أو الثالث فأتى له من الصحف بين جرائد ومجلات مختلفة العنوانات فهرت في الطافقين نحو أربعة آلاف ، منها ما يزيد على ثلاثة آلاف عدد أول .

وأما القسم غير العربي فيضم الصحف التي خرجت في حروف شرقية كالتركية والفارسية والعبرية والسريانية والحبشية والكردية والتترية والأردوية والأرمنية وغيرها . وبجنب ذلك عني الشيخ العربي بجمع طائفة من الصحف الأفرنجية التي طبعت في بلاد الشرق أو التي نشرها الشرقيون في بلاد الغرب ويربي عدد تلك الصحف غير العربية على ثلاثة آلاف .

ولهذه المجموعة — وفيها أعداد مخطوطة لا مطبوعة — ترتيب حسن يجري على ناحيتين الناحية الجغرافية والناحية التاريخية فبحسب الأولى قسمت المجموعة خمسة أقسام على عدد قارات العالم ثم جزئت كل قارة إلى دول ، وكثرت الدول على فروع ، والفروع على توابع ، فمن العواصم حتى القرى . وبحسب الناحية الثانية سلسلت الصحف على تعاقب السنين من الزمن الأبعد إلى الأقرب . وتقريباً للمأخذ صنع صاحب المجموعة فهارس تفاصيلة ومسارد وافية أدرج فيها على التتالي أسماء المنشئين وأسامي الصحف .

تلك هي المجموعة التي نرجو أن تبقى في الشرق العربي بل في مركزه الثقافي مصر . وإنا لنعلم أن صيونا شاخصة اليها وأن خزانات طامعة فيها . ذلك لأنها ذخيرة ثمينة من جانب تاريخ الصحافة العربية خاصة والشرقية عامة ثم من جانب النفاسة والندرة على وجه الاطلاق .

إنها لمجموعة لن يتهيأ اقتناها اليوم لأحد مهما يبذل من السعي .

***

ونحن نهنئ الشيخ الهمام بدأبه العلمي ونذكر له فضله ولسأل الله أن يمد في عمره ، فهو من العلماء العاملين الذين وهبوا حياتهم وثروتهم وسعيهم لخدمة المعرفة ولتوسيع الثقافة وليذل أدوات الاطلاع والتحصيل لمواطنيه . ولعل لبنان يقدر هذا الفضل ويُنزل صاحبه المنزلة التي هو أهل لها وبها أحق .

فهرس الجزء الاول

من المجلد السادس بعد المائة

١ عقّار جديد لعلاج السل والجذام
٨ على المشتهة (قصة) : لحضور تيمور
١٧ على هامش الطب : للدكتور سليمان عزمي باشا
٢٥ أبو العلاء وبيئته : لادوار مرقص
٣٢ مياه عين الفيجة
٣٥ كانت والعقل الجرماني الحديث : نقله عبد الكريم الجود
٤٠ منشأ الدولة الاتابكية : لناجي الطنطاوي
٤٤ التنين الطارجي : للدكتور نجيب الارمنازي
٥٧ الآسر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

باب التعريف والتنقيب

٦١ مئة مضت : بقلم ب. ف.

صورتان من الفن العربي في دمشق

١ — الكتب : « أبو نواس » تأليف عبد الرحمن صدقي . نقد بقلم محمد عبد الغني حسن — «جمور أزسطفانس» تأليف فكتور ايرنبرج . نقد بقلم رهيب كامل — «رسالة الملائكة» للمري ، تحقيق وشرح محمد سليم الجندي . نقد بقلم رفعت فتح الله — «كتاب فتوح إفريقية والاندلس » تأليف عبد الرحمن بن عبد الحكم ، نشره وترجمه جاتو . نقد بقلم زكي محمد حسن — ثم كتب ظهرت

٢ — المجلات : «الأديب» العدد الخاص بأبي العلاء . نقد بقلم عبد السلام محمد ها...

٣ — المسرح : «صفق الجمهور فصفق النقاد» . بقلم زكي طليمات

٤ — الاستدراك : الامتاع والمؤانسة ، الجزء الثالث ، للتوحيدي . بقلم ... على ...

٥ — المسائل : «الأديب وحرك» بقلم بشر فارس

٨٨ باب الأخبار العلمية : ثمرات الحرب المالية في العلوم والفنون ... الموضر چندي ... زراعة غير منظور يقي من البلل . الباسلين أيضاً . مستقبل القطن العليمي ، سلاح الدروع الوحديد فلذ ... قواعد نسيجة الطعام الصحي . مجموعة فريدة للصحف الشرقية . لدى الميكانيك دي طرازي بيروت